مجموعة مؤلفين

الموت في الحرية

(قصص من تركستان الشرقية)

نقلها عن الأويغورية: أحمد جان عثمان

إلى الجنين الأويغوري.. الذي في طريقه إلى الحياة.

المترجم

ولي داود

الموت في الحرية

في إحدى المناطق الجبلية حيث يعيش شعب نازح، ظهر فجأة حيوان مفترس رهيب. ولقد بدأ ذلك المخلوق يجلب الكارثة لحياة أولئك الجبليين الشجعان، المغرمين بالصيد...

فهو كان يترل من الجبل ليلاً، دون أن يثير انتباه الناس من حوله، ويقضي بقبضتيه القويتين على مواشٍ، لا عدّ لها، سحقاً وخنقاً. وفي النهار، لم يكن يسمح لأحد من الإنس والجن بالاقتراب منه. وفي النتيجة، انتهت تلك الأعمال البطولية التي قام بها أولئك الصيادون الشجعان، الساكنون في الجبال، إلى هلاكهم هم أنفسهم... هكذا، أخذ الرعب يتملك الجبليين. وفي الأخير، ترك الناس ذلك الحيوان المتوحش يتصرف على هواه. قائلين بيأس ما دام الإنسان يتنفس، فلا بدّ أن يحصل على رزقه مهما كان.

في أحد الأيام، جاء إلى سيد البلد واحد من عبيده المسنّين راكعاً، وقال:

ــ عِدني بمنحي حريتي، فأنا أستطيع القضاء على ذلك الكاسر.

أخذت عينا السيد بالتقلص. حدّق بانتباه لفترة طويلة إلى عبده العجوز، الذي عاش طوال العمر منبطحاً تحت رجليه، كما لو يراه الآن لأول مرة. ثم نطق بحيلاً النظر على عبده بشك:

ــ واه!... ثب إلى رشدك، أيها العجوز.

— عدني بمنحي حريتي...

— ألا تدري أن الحيوان الكاسر لم يستطع حتى صيادو الجبال الاثنتي عشـــرة الأكثر مهارة أن يقضوا عليه؟

— أدري.

— ألا تدري كم من بشر قد أهلكهم؟

— أدري.

— فكر الآن، ومن أنت؟

— ...

— ... أجل، سيجعلك الكاسر مزقا.

رفع العبد العجوز رأسه، وحدق بالسيد متوسلا.

— عندئذ، ادفني كما الرجال الأحرار.

والسيد، إذ تملكه الغضب الشديد من عدم فهمه لأسباب العناد الذي يبديـــه العبد العجوز وقد انتهى به الحال حيث لا يرتجى منه شيء، قال:

— حسنا، لأقل إنني منحت جسدك البالي حريته، فهل تستطيع أن تعيـــش حياتك بحالتك المزرية هذه؟ وهل لك أن تأكل حريتك لتسد بها جوعك؟ مـاذا ستفعل بالحرية؟

لم ينبس ببنت شفة. ظل ساكنا في مكانه ينتظر الجواب.

— هيا أخبرني إذن، كيف ستقضي على الحيوان المتوحش، أ تعتمـــد علـــى قوتك أم على المكر والحيلة؟

— ...

— أم إنك ستقتله بضربات من يديك الضعيفتين هاتين؟

— ...

— وهل أنت ذلك الرجل العظيم علـــى وجـــه الأرض، أم روح الأبطـــال الخالدين في السماء، أم ساحر عجيب!؟

ـــ عِدني، يا سيد.

صاح السيد ملوّحاً بيده وقد ضاق ذرعاً:

ـــ اذهب، كي تلاقي أجلك. أيها التيس العنيـــد... ســـيد الأبطـــال. إن استطعت أن تحضر معك شعرة من ذلك الكاسر، فسأعطيك حريتك!

تفحص سيد البلد طويلاً الشعر المبيضّ للعبد العجوز، ووجهه النحيف الـذي انطبعت عليه تلك الآثار العديدة لتقلّبات الحياة الممتدّة طوال قرن إلا ربعـاً، ثم قال في دخيلة نفسه، بهيئة بدأت تتّخذ ملامح الجدّ والودّ رويداً رويـداً، لعـل الذكاء الذي في رأسه ذي الشعر الفضي أكثر مما هو لدي.

ـــ أعدك، إذا استطعت أن تفي بما تقول فإني سوف أقدّم لك مع حريتـك قطيع مواشٍ كهدية، ـــ قال السيد.

تدبّر العبد العجوز أمره وتمكّن، حين خرج المخلوق المتوحش للبحث عـن فريسة، من الوصول أمام مغارته. وبعد أن خلص من تجهيز الأمور أخرج مـن داخل المغارة صغير الكاسر ممسكاً إياه بيديه، ثم جلس منتظراً برباطـة جـأش المصير الرهيب الذي سيتزل عليه...

ما هي إلا لحظات حتى عاد ذلك المخلوق وبين أنيابه قطعة لحم كبيرة يقطـر منها دم حار. وحين رأى فجأة رجلاً يجلس أمام مغارته قابضاً على صغـيره، انتابه الذعر. حتى إنه تراجع بضعة خطوات كأنه خائف. لكن، بغمضة عـين، تطايرت شعراته منتصبةً كالأشواك الحادة. واشتعلت عيناه الشبيهتان بـالجمر تشعّان بوحشية. ألقى من فكّيه فريسته التي كان يغرز فيـها أنيابـه القاتلـة كرؤوس الرماح، وانتصب على قائمتيه الخلفيتين مثل الجبل المشرئبّ، ثم أخـذ يهدّد الرجل مزمجراً كالعاصفة. في اللحظة نفسها، انتصب العبد العجوز هـو الآخر، وعصف بشكل أكثر دويّاً من المخلـوق المتوحّـش، ثم رفـع صغـير المخلوق، الذي كان بين يديه، فوق رأسه وضربه أرضاً بكل عنف. ما إن أطلق

محمد أمين عاشور

وادي الذئاب

لقد أمضيت العطلة الصيفية هذه السنة في قرية "البستان". كانت قريةً جميلة تقع على سفح أحد الجبال. كانت الجهة السفلى من القرية حقولاً تمتدّ بعيداً، وأما في جهتها الخلفية فكانت تبدو التلال الخضراء على امتداد النظر. إن هذه التلال كانت ترتفع حتى تصل الجبال المغطاة بأشجار الصنوبر، ثم القمم المكللة بالثلوج البيضاء على مدار السنة. والمياه الجبلية الباردة، التي تتدفق مزبدة من الوادي العميق بين الجبال وهي تتصادم بالصخور، كانت تشكّل نهراً صغيراً، وتمرّ بجانب القرية. إن بيوت الفلاحين البسيطة داخل حدائق مسوّرة، والحقول المليئة بالمزروعات التي تتمايل مع النسيم حول القرية، والتلال المتموّجة حيث تزينها أزهار برية مختلفة الألوان، والقمم التي تكسوها أشجار الصنوبر، والتي تضطجع متدثرة بسحابة زرقاء، والدروب المتعرجة الممتدة من القرية نحو التلال، والجسر الخشبي العتيق فوق النهر الصغير... كل ذلك كان يبدو للناظر من بعيد وكأنها لوحة زيتية لأحد الرسامين الكلاسيكيين.

المخلوق الصغير صرخة قصيرة مريرة تصمّ الآذان حتى مات. فالكاسر، إذ فقد رشده من شدّة الغضب والألم، سرعان ما توحّش وانقضّ بكل كيانه على العبد العجوز. أما هو، قبل أن يقترب منه الكاسر الغاضب، فقد دار إلى الوراء بكل خفة ورمى بنفسه بين أحراش النباتات البرية. في اللحظة نفسها اهتزّت كل الجبال والصخور في الصدى المعذّب المزمجر الذي ارتفع من شدة الألم. إنّ الضربة القاتلة، التي كانت تختبئ بين الأحراش المظلمة، ذاك الرمح الفولاذيّ الطويل والحادّ قد انغرز في صدر المخلوق المتوحّش حتى خرج من الجهة الثانية ثاقباً ظهره. زمجر الكاسر متخبطاً في مكانه من شدة الألم في جرحه القاتل. فتّت عصا الرمح بأنيابه، ثم، فجأة، استجمع أنفاسه وقواه الأخيرة وانقضّ على العبد العجوز المحاصَر بين الأحراش البرية، التي نبتت متشابكةً والمتينةِ كالقلعة...

... بصعوبة جمّة استرجع العبد العجوز وعيه. وظلّ طويلاً جداً حتى فتح عينيه رويداً رويداً. ثم استطاع بذلك العذاب نفسه أيضاً أن يرى، وعلى بعد بضعة خطوات منه، الكاسر المتمدّد كصخرة ضخمة غارقاً في دمائه. إنه، في تلك اللحظة بالذات، أغمض عينيه مطمئنّاً. فقد برقت ابتسامة سعيدة على شفتيه ثم لم تنقضِ هنيهة حتى بقي متجمّداً كما هو.

أعتقد أن لا أحد يعرف بدقة تاريخ هذه القرية أكثر مما يعرفه الشيخ هاشم. حسب ما يرويه الشيخ: كانت هذه القرية في ما مضى مشتى حيث يحفظ فيه الرعاة قطعانهم حتى تنقضي أيام الشتاء، فما إن يدفأ الطقس وتذوب الثلوج حتى كان الرعاة يطوون خيامهم، ويضعونها على دوابهم، ثم يسوقون قطعانهم للانتقال إلى الجبل؛ كانوا يرعون المواشي، ويبلغون حتى أطراف القمم المكللة بالثلوج، ومن ثم، عندما يبدأ الطقس بالبرودة، ينحدرون من جديد رويداً رويداً عائدين إلى المشتى. بعد الثورة، حُوّلت السهول أسفل المشتى إلى حقول، وأصبح المشتى قريةً. وحتى الآن، في حين يعمل قسم من سكان هذه القرية في الزراعة، ما زال قسم آخر منهم يرعون الماشية.

إن أكثر ما استحوذ عليّ هو ذلك الوادي، الذي تتدفق منه المياه الجبلية الصافية. يدعو الناس هذا الوادي "بوادي الذئاب". يصعب على الإنسان السير داخل الوادي. فعندما تتقدم فيه، تسدّ طريقك أشجار الحور الجبلية، التي نمت مفرّعةً أغصانها في كل اتجاه وقد ارتوت جيداً، والأدغال المتشابكة، والصخور الضخمة الناتئة، والسيول الفرعية التي تنحدر هادرة من القمم البيضاء وتصبّ في مياه الوادي. يمكنك أن تتفرج على هذا الوادي المهيب من علٍ، فحسب، وأنت تسير على المرتفعات بمحاذاة طرفيه. كلما تصعد في محاذاة الوادي تقترب حتى تبلغ الجبال المغطاة بأشجار الصنوبر. إن المياه المنحدرة، بهدير مستمر، من القمم المكللة بالثلوج نحو عمق الوادي تبدو للناظر من بعيد مثل شريط فضي يتدلى نحو الأسفل. في تلك اللحظة، تخطر في ذهنك فكرة تقول: لعلّ الشعراء كتبوا قصائدهم الغنائية في المياه الجبلية وهم يتأملون مثل هذه المناظر... فالمياه الجبلية، التي لا تني تنحدر طوال العصور من تلك القمم، قد شكّلت هنا وديانـاً هائلة كهذه. حين تنظر من علٍ، ليس بوسعك أحياناً أن ترى حتى المياه في عمق الوادي السحيق؛ وإذ تُنصت، يتناهى إلى سمعك صدىً خافت للمياه الجبلية التي تسيل مزبدةً هادرة.

في أحد الأيام، خطر لي فجأةً سؤال: لماذا يدعون هذا الوادي "بوادي الذئاب"؟ فذهبت إلى بيت الشيخ هاشم لأسأله عن هذا الموضوع. مدّت حفيدة الشيخ مائدة أمامي. كان الشيخ هاشم رجلاً تخطى الثمانين من عمره، وقد أمضى حياته منهمكاً بالمواشي داخل هذا الجبل. ما عدا قامته المنحنية قليلاً، فإنه لا يزال قوياً، تضفي عليه لحيته البيضاء مظهراً جميلاً. فحتى في هذا العمر كان يستطيع، إذا اقتضى الأمر، أن يشرب حليب الخيول أكثر من الشبان. تحدّثنا ونحن جالسان على المائدة نشرب حليب الخيول.

ـــ لقد غزتني الشيخوخة، ـــ قال الشيخ، ـــ كنا نجوب على الخيول عندما كنا في سنّك. فقد أصبحت الآن لا أستطيع حتى القيام بواجبات الماشية. لكن، يبدو أن إدمان الجبال شيء مختلف. ما إن يقبل الصيف، حتى أصير لا أستطيع المكوث في البيت، فأسرج الحصان، وأخرج تاركاً أعمال الحقول للبنين. إذ إنني لا أرتاح أبداً قبل أن أجوب الجبال مرة، وأزور أصدقائي الرعلة، وأشرب حليب الخيول مستلقياً على المرعى... ها هو ذا حليب الخيول وقد أحضرته معي للتو من هناك ليلة البارحة، تذوّق.

تناولت الوعاء المليء بحليب الخيول الدسم، وأخذت أرتشف منه بلذة. أحسست وكأن جسدي كله بدأ ينتشي.

ـــ أيها الجد هاشم، لماذا يسمون الوادي الكائن قرب القرية "بوادي الذئاب"؟ ـــ سألت وأنا أمسح فمي بيدي.

ـــ حسناً، هل ذهبت إلى الوادي؟ ـــ قال الشيخ مبتسماً.

ـــ أجل، لقد ذهبت، إنه حقاً لوادٍ مدهش.

ـــ أنت رجل مثقّف، قل لي يا ترى، لماذا هم يسمون هذا الوادي "بوادي الذئاب"؟

ـــ لست أدري، ـــ قلت، ـــ وربما، في ما مضى كانت هناك ذئاب كثيرة حول هذا الوادي.

— وهل هناك جبل ليس فيه ذئب؟

— إذن، لماذا سمّي هذا الوادي وحده "بوادي الذئاب"؟

ارتشف الشيخ هاشم جيداً من حليب الخيول أمامه، ومسح شاربيه ولحيته براحة يده، مستغرقاً في التفكير لحظات طويلة، ثم قال:

— كنا نسمي هذا الوادي سابقاً "بوادي القبر". وكما رأيت، فإن الجانب العلوي لهذا الوادي عميق جداً، حيث يظل مظلماً كالقبر بعيداً عن ضوء الشمس صيفَ شتاء. لماذا أصبح هذا المكان فيما بعد يدعى "وادي الذئاب"؟ فهذه قصة طويلة جداً.

عندما كنا صغاراً، كانت ترعى هنا حول المكان مواشي أحد الرجال الأثرياء يدعى يعقوب بيك. كنا نسمع عن يعقوب بيك أنه من أولئك الأثرياء الكبار، الذين لا يعرفون هم أنفسهم حجم ثرواتهم. كانوا يقولون إن للبيك أيضاً مواشٍ كثيرة في مراعٍ أخرى، ومنازل فخمة في المدينة. وفي الغرف الخارجية كان يقيم خدمه، والرعاة القادمون إلى المدينة للأعمال؛ أما في الحجرات الداخلية المفروشة بأثاث فخم فكان يسكن البيك نفسه مع زوجاته اللواتي يتفاوتن في الأعمار. كذلك كان له في أماكن عديدة حدائق كبيرة، فيها أشجار مثمرة، تحيطها جدران بنيت على نمط مدينة أنجان. في الحقيقة، هل كان يعقوب بيك رجلاً أبيض أم أسود، وهل هو طويل أم قصير، فأنا أيضاً لم أشاهده في حياتي قط. فالذين كنا نشاهدهم باستمرار، كانوا خدمه القائمين بأعماله اليومية. كان المحاسبون العاملون لدى البيك يأتون مرة أو مرتين في السنة، ويسجلون في دفاترهم عدد البهائم التي ماتت، وضاعت، وولدت، ثم يرحلون بعد أن ينتهوا من المعاملات الحسابية مع الرعاة. كنت أتخيل يعقوب بيك رجلاً لا يغادر بيته أبداً، يجلس بجانب صناديقه ويَعدّ قطعه الذهبية والفضية وهي تُصدر رنيناً.

في ذلك الزمان كانت ذئاب الجبل كثيرة فعلاً بالمقارنة إلى اليوم. كما

كانت الحيوانات البرية متوفرة بكثرة حيث تفترسها الذئاب. أتذكر أنه كان للرعاة كلاب ضخمة كالحمير تحرس حظائر المواشي، وكانت الذئاب لا تهلحم أبداً مواشي الرعاة إلا عندما يصبح الجوع لا يُحتمل. كان يحدث أحياناً أن يلتهم ذئب مسافراً بقي وحيداً في دروب الجبل. إن الرعاة ذوي الخبرة كانوا يعرفون الأماكن التي دائماً تعبر منها الذئاب. إذ كانوا ينصبون كميناً في مثل تلك الأماكن ويصطادون الذئاب. كانوا يسلخون الذئاب التي اصطادوها، ويجمعون الجلود، ثم يبعثون بها إلى يعقوب بيك في المدينة. لماذا، لأن برد الشتاء كان قارساً في تلك الأزمنة، وكان الأغنياء يحبّون ارتداء المعاطف ذات الياقات من فِراء الذئاب. لقد ابتكر موضوع تسليم جلود الذئاب إلى البيك أولئك المحاسبون المتملّقون لدى البيك، الذين كانوا يَقدمون إلى المرعي بين فترة وأخرى. لم يكن الرعاة يخشون يعقوب بيك أكثر مما يخشون متملّقيه هؤلاء. إذ كان هؤلاء الذئاب ذوو الرِجلين أكثر توحّشاً من ذئاب الجبل ذات الأرجل الأربع. فهم، كل مرة يصعدون فيها إلى الجبل، كانوا يذبحون يومياً عدة أغنام ليلتهموها، ثم يمشون وهم يقضمون لحمها بين أياديهم عندما يعودون. وقد كان حساب هذه الأغنام المذبوحة يسجَّل في دفترهم في عداد الأغنام التي "أكلتها الذئاب". ثم كانوا يأخذون معهم جلود الذئاب التي اصطادها الرعاة، ويعرضونها أمام البيك ليجعلوه يصدّق أن الخسارة فعلاً بسبب الذئاب.

هل تظن أن الجلود التي كانت تُحضر بهذه الطريقة من كل مرعىً إلى يعقوب بيك قليلة، وهل كان بإمكان البيك أن يخيطها كلها معاطف لنفسه؟.. يقال إن يعقوب بيك كان على علاقة وطيدة مع المسؤولين في البلدية. وإنه كان يختار أحسن الجلود المتجمعة لديه، ويبعث بها إلى البلدية كهدية. كنا نسمع أنه في تلك الفترة كان ارتداء المعاطف من جلود الذئاب عادة متّبعة بصورة عامة استمرت سنين طويلة. إن جلد الذئب المدبوغ بشكل جيد له منظر جميل، ويكون دافئاً وخفيفاً. وقد تعوّد جميع الناس من أثرياء، مسؤولين،

أغنياء مهتمّين بالمظاهر وزوجاتهم على ارتداء المعاطف من جلد الذئب. يقولـون إنه حتى خيّاطو ذلك الزمان، وهم يتنافسون فيما بينهم، قد ابتكروا تفصيـلات غريبة وعجيبة لمعاطف جلد الذئب. خاصة، عندما يفصّلون معاطف للسـيدات، كانوا يختارون فراءً زاهي اللون، ثم يخيطونه بدقة واهتمام بـالغين. إن بعـض الخياطين كانوا يختارون قطعتين من جلود الذئاب المسلوخة، ثم يخيطونهما بحيـث تأتي مقدمة الذئب عند طرفي ياقة المعطف، فالسيدة التي ترتـدي مثـل هـذا المعطف، عندما تثبّت أزرار ياقته، كانت مقدمتا رأسي الذئب تلتحمان بالضبط فوق الصدر المرتفع للسيدة، حيث يبدو مهيباً وكأن الذئبين متأهبان للانقضاض كل منهما على الآخر متنازعين على الصدر الناعم لهذه السيدة.

في أحد الأعوام سقطت فوق الجبل ثلوج غزيرة جدا، واشـتدّ الصقيـع. حيث تدفقت الذئاب الجائعة حتى وصلت إلى مشتانا نحن أيضاً. كانت تهـاجم حظائر الأغنام في الليل فجأة، وتلتهم بعضاً منها، وتخنق بعضَها الآخر ثم ترحل. فبعض الخراف التي هوجمت في خصرها أو مؤخرتها كانت تثغو بألم. يبـدو أن الذئاب قد هاجمت بصورة جماعية، أما كلابنا الضخمة الـتي كـانت تحـرس المواشي فقد هرعت تختفي في الزوايا وهي تنبح. بعدما تكررت هذه الكارثـة عدة مرات وتضخم حجم الخسارة، أرسل الكبار رجالاً إلى المدينـة لإبـلاغ البيك بما حدث. لا أدري إن كان أحد قد أسدى ليعقوب بيك نصيحة بهـذا الشأن أم فكّر بنفسه، فقد قرر البيك، الذي سمع بأن الذئـاب قـد تجـاوزت حدودها، "لماذا لا نرسل بضعة جنود من البلدية ونطلق النار على الذئـاب". لم يرفض له المسؤولون في البلدية طلبه، واختاروا من بين الجنود قناصاً لهذه المهمة.

لقد أحضر القناصَ إلى المشتى أحد المحاسبين لدى يعقوب بيك. كانت هنـا في تلك الفترة تسكن أكثر من عشر عائلات للرعاة. وكانت بيوتهـم الرديئـة الواطئة منثورة هنا وهناك. يوم قدِم القناص اجتمعنا كلنا حوله لنراه. فقد كـان رجلاً ضخماً، ذا لحية، مسودّ الوجه. كان يضع على رأسـه قلنسـوة عتيقـة

محشوة بالقطن، ويرتدي معطفاً رمادي اللون، وينتعل جزمة كبيرة رديئة المنظر. وكان هناك على كتفه بندقية سوداء لها كعب طويل. وبجانبه، في عربة تزلّج يجرها حصان، كان هناك صُرّة بسيطة، وداخل دلو عتيق سكين، مغرفة، أوانٍ وأشياء أخرى. كان أحد الروس يدعى ستيفان يملك بيتاً خشبياً في الطرف العلوي من المشتى. كان هذا الروسيّ يأتي إلى هنا في بعض السنوات مع عائلته، ويزرع البطاطا في الأرض الخصبة حول البيت الخشبي. وكان يضع الصناديق على التلال المتفتحة فيها الأزهار الجبلية بشتى الألوان ويربي النحل؛ وأما أحياناً فكان يختفي عن الأنظار لعدة سنوات. لم يكن في هذا المشتى بيت مقبول سوى ذلك البيت الخشبي لستيفان. بعد التشاور قرر الكبار أن يسكن القناص في ذلك البيت.

لا أذكر حتى اليوم ماذا كان يدعى ذلك الجندي القادم من البلدية. على كل حال، فقد كنا نناديه كلنا "بالسيد القناص" فقط. سبب ذلك أنه كان رجل الحكومة في النهاية، بالإضافة إلى أنه كان يملك بندقية. لذا كنا نشعر بالحرج إذا ناديناه باسمه. أعتقد أن عمره كان في تلك الفترة ما فوق الأربعين، ثم كان هناك في المحكمة في ذلك الزمان أمثال هؤلاء الجنود المسنّين. كان شخصاً ماهراً في الرماية وقد أبلى بلاء حسناً في المعارك في ما مضى حسب ما يقول الآخرون. ولكن بسبب عاداته الكثيرة السيئة كالمقامرة وتعاطي الحشيش لم يستطع الحصول على أية ترقية في المناصب قط.

لم يقتل القناص ذئباً منذ أن قدم إلى المشتى. كان يخرج كل يوم تقريباً ويتجول في المنطقة، ثم يطلق من بندقيته عدة رصاصات قبل أن يعود إلى بيته الخشبي. لقد أطلق النار على بضعة حيوانات مثل الثعالب والأرانب البرية. بدأنا نصدق أنه قناص فعلاً. إنه، بغضّ النظر عما يصوّب عليه، كان يصيبه في رأسه بالضبط. لقد فرح الذين في المشتى من مجيئه. وهل توجست الذئاب شراً عندما سمعت صوت البندقية، لسنا ندري. فقد أصبح لا يأتي إلى المشتى أي ذئب

بعدما وُجد القناص في هذا المكان.

كنت أنا أيضاً في تلك الفترات قد ظهر لي شارب، وغدوت شاباً. كنا عدة شباب، في مثل سنّي، ساكنين في المشتى، حين نشعر بالملل، نذهب إلى البيت الخشبي حيث يقيم السيد القناص، ونستمع إلى أحاديثه. كنا، في أي وقت ندخل إليه، نشاهده جالساً ينظّف بندقيته. وكانت البندقية السوداء الثقيلة تنتقل من يد إلى يد ونحن نتفرج عليها بحماس. كان السيد القناص يتناول البندقية من أيادينا مجدداً ويضعها بجانبه. كان يبدو لي أن هذا الرجل لا يملك شيئاً عزيزاً على نفسه سوى تلك البندقية السوداء...

كذلك كانت أحاديث السيد القناص شيقة جداً. فهو كان في معظم الأوقات يحرس المجرمين في سجن البلدية. كان هناك في هذا السجن أناس بشتى الأنواع كاللصوص، المقامرين، القتلة، المشعْوذين والمحتالين. وحتى السجن نفسه كان عالماً عجيباً. ففي الليل كان يحمى القمار هناك. وحتى السجّانين أنفسهم كانوا ينضمّون إلى السجناء في مائدة القمار. وعندما تنتهي النقود من طاولة الميسر، كانوا يبعثون باللصوص والنشالين إلى الخارج ليسرقوا نقوداً ويأتوا بها. من فرط ما يمكثون هناك من سنين طويلة، كانت ثياب السجناء تصبح قذرة إلى حد كبير بحيث، عندما يترعون ثيابهم غير محتمِلين عضّ البراغيث ويتركونها جانباً، كانت البراغيث المنتشرة تزحف وهي تجرّ حتى الثياب...

كنا نبقى في بعض الأيام مع السيد القناص حتى منتصف الليل ونحن نستمع إلى مثل تلك الأحاديث الشيقة. وعندما يحين وقت العودة كان السيد القناص يودّعنا أمام الباب، ثم يطلق أيضاً عدة رصاصات باتجاه السماء قبل أن يدخل إلى البيت.

عندما أقبل الصيف انتقل السيد القناص مع الرعاة إلى الجبل. فقد غدا سميناً نوعاً ما وتورّد خداه وهو يتغذى من حليب الخيول، اللبن والقشدة، واللحوم. وقد تعوّد هو نفسه على هذا المكان، وكان لا يرغب أبداً في العودة إلى البلدية

لقد أصبح الرعاة الآن يسلّمون جلود الذئاب الواقعة في مصيدتهم إلى السيد القناص. فهو نفسه قد أمرهم بأنه "بعد الآن تُسلّم جلود الذئاب إليّ أنا". إذ خشيةَ أن يعيده المسؤولون إلى البلدية، كان يبعث إليهم في كل فترة بالجلود المتجمعة ليُشعرهم على الدوام بأن الذئاب في الجبل لم تنتهِ بعد، وأنه ينبغي أن يظل هنا باستمرار. كان يحس طبعاً بأنه ههنا أفضل حالاً بكثير مما كان حارساً فوق أسوار سجن البلدية وهو يقتل البراغيث المنتشرة في ثيابه!...

صيفَ ذلك العام، قدم أيضاً المسؤولون في البلدية إلى المرعى وأقاموا فيه يومين. سبقهم خدم يعقوب بيك إلى هنا، وجهّزوا الأغنام التي ستُذبح للضيوف وأشياء أخرى ضرورية. لقد استضاف السيد القناص أيضاً المسؤولين القادمين من البلدية وكان يتصبب عرقاً وهو يركض من مكان إلى آخر ليقوم بخدمتهم على أكمل وجه. قيل إن هؤلاء المسؤولين، الذين ارتدوا طوال الشتاء معاطف من فراء الذئب، قد سألوه أموراً تتعلق بالذئاب الموجودة في الجبل، من أين تتواجد أصلاً تلك الذئاب في الجبل ثم إلى أين تختفي مرة أخرى؟ أين هي أوكارها؟ هل تعيش بشكل جماعي أم تتحرك بمفردها؟.. والحقيقة أن السيد القناص لم يكن يفقه شيئاً عن هذه الأمور. يبدو أنه قد أخذ المسؤولين إلى جانب وادي القبر، وأشار قائلاً "ها هنا تعيش الذئاب داخل هذا الوادي العميق". كما تعلم، إذا نظرت إلى داخل هذا الوادي وأنت واقف على المرتفع عند أعالي الجبل فهو يبدو مهيباً بالفعل. إن هدير المياه وهي تجري بعنف تحت الوادي العميق، ورجْع الصدى للرياح الجبلية بعدما تصطدم بالصخور العملاقة الناتئة يتناهيان إلى السمع بكل روع كعواء الذئاب وهي تتطلع نحو السماء. هكذا فأولئك القادمون من البلدية أقفلوا عائدين وهم يهزّون رؤوسهم مقتنعين.

في شتاء العام التالي، عندما نزل ثلج كثير اصطاد السيد القناص ذئباً بالفعل. أين أطلق النار عليه، وكيف أصابه، لم ندرِ. كانت الرصاصة قد

اخترقت رأسه. فقد رأيناه يترل من الجبل وهو يحمل على كتفه الذئب المقتول بالرصاصة. وقد تلوّث ظَهْر السيد القناص وكمّ سترته بدم الذئب. حين وصل أمام البيت الخشبي تطلّع حوله بفخر وكأنه يقول "ما رأيكم بسيدكم البطل؟"، ثم ألقى بالذئب عند جذع الشجرة أمام البيت الخشبي. ومن ثم أحضر سكيناً من البيت وأخذ يذبحه ويترع عنه جلده. لم يكن يعرف طريقة سلخ جلد الذئب. في البداية قطع رأسه ورماه بعيداً، ثم لم يستطع حتى أن يترع جلده بشكل جيد، فأخذ يقطعه عشوائياً ويرمي القطع في كل اتجاه. بقيت بيده في النهاية رِجلا الذئب الخلفيتان فقط. انهمك طويلاً وهو يجلس القرفصاء حتى أخرج أخيراً غضروفين من مفاصل تلك الأرجل. سألناه عندما اقتربنا منه:

ــ سيدي، ماذا ستفعل بهذين الغضروفين؟

قال لنا إنه قد عرف الآن كيف يصطاد ذئباً، وإنه بعد الآن سينتزع الغضروف هكذا من كل ذئب يصطاده، ثم يُدخله في خيط ليعلّقه على صدره. وقال إنه سيكون نيشاناً للذئاب التي يقتلها. فالإنسان، الذي يعلق على صدره غضروف الذئب، لا يصيبه أي مكروه...

لم ندرِ أية كارثة قد حلّت. فقد تجمعت في تلك الليلة ذئاب كثيرة حول القرية. كانت الكلاب الفزعة ترمي بنفسها في كل اتجاه وهي تنبح بخوف. والأغنام التي كانت في الحظيرة قد تجمعت بشكل دائري وأخذت تتخبط. كانت الخيول تصهل بشغب. لقد أضرم الرعاة نيراناً أمام الحظائر. كانت ليلة شتوية مقمرة. كنا نشاهد الذئاب تتحرك في أعلى القرية حول البيت الخشبي حيث يقيم السيد القناص. رغم اعتقادنا أن "الفرصة قد أتت الآن ليقتل السيد القناص مزيداً من الذئاب"، لم نسمع أبداً صوت البندقية ولا ندري لماذا. كانت الذئاب تطوف باستمرار حول البيت الخشبي. وكانت تحفر الأرض بقوائمها الأمامية تحت الشجرة حيث ذبح السيد القناص ذئباً في النهار، وتعوي بشكل مرعب رافعة رؤوسها نحو الأعلى...

بعد تلك الحادثة، بدأ السيد القناص يظهر أمام أنظارنا كأنه يغدو غريب الأطوار.

ذات يوم، جاء إلى القرية في وضح النهار وهو يجري، ثم صاح ينادينا. هرعنا إليه. قال:

ـــ لقد جئت من الوادي للتو. رأيت مجموعة من الذئاب متجمعة داخل الوادي. واحد منهم كان هو الذئب الأغبر الضخم، الذي ظلٍ ملتصقاً بنافذتي في ذلك اليوم، على ما يظهر أنه هو رئيس الذئاب. كان واقفاً في الوسط يدخن سيجارة. وقد سمعتُ بقية الذئاب تتحدث بلغة غير مفهومة. كما أن أحد الذئاب أشار نحوي وصاح كأنما يقول: "ما هذا الدم في ظهر ذلك الرجل ويديه!". فهربت مذعوراً إلى هنا مباشرةً...

حين سمعنا هذا الكلام بقينا نحدق به فاغري الأفواه، ولا ندري ماذا نقول. فكرنا في دخيلة أنفسنا "تُرى، هل أصبح هذا المسكين مجنوناً بالفعل؟".

في يوم آخر، سألَنا قائلاً:

ـــ هل علمتم ماذا جرى اليوم؟

كانت قد مرت تلك الليلةُ هادئة جداً.

ـــ لم نعلم، ماذا حدث؟ ـــ قلنا.

حسب ما قال: "إن مجموعة من الذئاب المسلحة، وقد انتظمت في صفوف، أخذت تمشي مشياً عسكرياً حول بيته طوال الليل. وكان الذي يسير في مقدمة الصفوف، واضعاً مسدساً على خصره وينفخ في صفّارة، هو ذلك الذئب الأغبر... قال في ختام حديثه:

ـــ سأنقل النبأ إلى البلدية. يجب أن تُنقل إلى هنا فصيلة من الجنود."

لقد غاب يومين، ثم ظهر من جديد. روى "أنه دخل إلى المدينة. والأمر المحيِّر، أنه شاهد حتى في شوارع المدينة ذئاباً تتجول. تراءى له وجه واحد أو اثنين منها ليس غريباً عنه. عندما انتبه جيداً، تأكد من أنها كانت تلك الذئاب

التي سُلخت جلودها هنا في الصيف وأُرسلت إلى البلدية... كذلك شاهد ذئبين كانا يجلسان أمام أحد الدكاكين. يبدو أن أحدهما ذئب هرمَ كثيراً، وكان يجلس محدقاً إلى الأرض وقد وضع عصاه بين ساقيه، بينما كان ذئب أكثر شباباً بجانبه لا يني يغمز السيدَ القناص بعينه مشيراً إليه أن تعال..."

دخل السيد القناص إلى مبنى البلدية، وقصّ عليهم هذه الأشياء، فاستغرب في البداية المسؤولون لدى البلدية. ثم أخذوا يضحكون كثيراً وأياديهم على بطونهم.

ــ حسناً، هل رجعتْ إليك مجدداً تلك العادة القديمة في تعاطي الأفيون، يلد ترى؟

ــ ما دام غمزك ذلك الذئب أن تأتي إليه، فهل يعني هذا أنها كانت أنثى الذئب وقد عرفت أنك عازب؟

هكذا قالوا له.

على أية حال، فقد اختلط الآن في رأس هذا المسكين كل ما هنالك من ذئاب وبشر يرتدون معاطف من فراء الذئب، جنود مسلحون يسيرون في صفوف على ساحة المعركة وذئاب تعوي حول البيت... الواقع وأحلامه، الماضي والحاضر. حتى نحن عندما نسمع أحاديثه كنا نجبر أنفسنا بمشقّة على عدم الضحك، ثم بعدما يبتعد، كنا ننفجر بالضحك مشفقين عليه.

في أحد الأيام، بعد الظهر، كان النهار لا يزال مشرقاً بعد. سمعنا فجأة صوت طلقات. بعد ذلك فوراً خرج السيد القناص من البيت الخشبي، وأقبل نحونا راكضاً. كان قد أدخل ذينك الغضروفين للذئب في خيط وعلّقهما على صدره.

ــ لم تصدقوني حين أخبرتكم، أليس كذلك، لم تصدقوا، وضحكتم حتى، أجل ضحكتم... ــ قال.

ــ علامَ لم نصدقك سيدي، على ماذا؟ ــ سألناه ونحن لا نفهم شيئاً من

كلامه المبتور.

ـــ حين قلت إن الذئاب قادمة في صفوف... ها أنا قـــد أطلقـــت النـــار عليها.

ـــ ما الذي أطلقتَ النار عليه؟

ـــ الذئاب القادمة في صفوف...

هكذا قال، وركض باتجاه أسفل المشتى. كذلك نحن ركضنـــا وراءه. ولم نذهب بعيداً حتى رأينا كتلة سوداء متمددة فوق الثلج الأبيض. وعندما اقتربنـــا فقد شاهدنا جثتين لرجلين أصابتهما الطلقات. كل منهما كان يرتدي معطفـــاً فاخراً ذا ياقة مصنوعة من فراء الذئب.

كانوا في الأصل من موظفي البلدية. وقد قدموا إلى إحدى القرى القريبـــة من مشتانا للترهة، وشربوا خمراً كثيراً. ثم تذكروا السيد القناص، الذي يقيـــم في المشتى. ضحكوا طويلاً حين تحدثوا حول ما قاله ذلك النهار في البلديـــة مـــن كلام غريب. ومن ثم قالوا وهم سكارى "هيا بنا نذهب إلى ذلـــك القنـــاص، ونرى ذئابه التي تتجول هناك حاملةً المسدسات!" واتجهوا نحو المشتى. في هـــذه الفترة كانت الثلوج قد قطعت الطرق المؤدية من المشتى إلى بقية القرى. لـــذا، لم يقدر حصانهم، الذي كان يجرّ عربة التزلج، على السير قدماً في منتصف الطريق، فتركوا العربة، وتقدموا على الثلج وهم يسيرون صفاً طويلاً، واحداً إثر الآخـــر. لقد تراءوا هؤلاء من بعيد في نظر السيد القناص صفاً من الذئـــاب القادمـــة، فأطلق النار عليهم. سقط اثنان كانا يسيران في مقدمتهم، وأما الآخرون فقـــد فرّوا من حيث أتوا.

فزعنا حين شاهدنا الجثتين. فنظرنا إلى السيد القناص نظرة تساؤل. كـــان الدم متجمعاً في عينيه. وربما لا يزال مقتنعاً بأن اللذين أطلق النار عليهما ليســـا بشراً.

ـــ غريب، منذ متى أصبحت هذه الذئاب تسير منتصبة على رِجلـــين؟...

وهل الذئاب تمشي في الأصل برجلين أم بأربع أرجل؟... ـــ كان يقول وهو يخطو جيئة وذهاباً.

"والآن كيف ستكون نهاية هذا الأمر؟" بدأ كلنا يقلق. ولم يجرؤ أحدنا في تلك الليلة على الخروج من بيته. استيقظنا مذعورين من صوت طلقات في الفجر. يبدو أن الذين نجوا في الأمس من رصاصة السيد القناص وهربوا، قد أخبروا البلدية "بأنه حقاً ظهرت ذئاب مسلحة في الجبل، وقد فتحت النار وقتلت شخصين من رجالنا"، فقد ضرب الجنود طوقاً حول المشتى. كانوا يطلقون النار بشكل عشوائي في كل اتجاه. وكان يُسمع من جهة البيت الخشبي صوت طلقة بين فترة وأخرى من بندقية السيد القناص. لعل السيد القناص لا يزال يعتقد حتى هذه اللحظة أنه يحارب الذئاب، إذ كانت كل طلقة من بندقيته تقضي على حياة جندي من الجنود.

بعد ساعة تقريباً من هذه المناوشات، اقتحم الجنود القرية. قتلوا الكلاب التي اندفعت نحوهم من البيوت وهي تنبح، ثم أخذوا يفتّشون بيوت الرعاة وحظائر المواشي واحداً تلو الآخر. لم نكن ندري عما كانوا يبحثون بالضبط. بعد ذلك غادروا القرية، وحاصروا البيت الخشبي هناك بجانب الشجرة وأمطروه بوابل من الرصاصات. هل كان هؤلاء الجنود يعرفون أنهم يقاتلون زميلهم أم لا، أم كانوا هم أيضاً يعتقدون أنهم يحاربون الذئاب؟ هذه الأمور مجهولة بالنسبة إلينا. قسم آخر من الجنود فتحوا النيران من بنادقهم متجهين نحو الوادي. كان بعضهم، على ما يظهر، لم يشاهدوا في حياتهم كيف تكون هي الذئاب أو ربما يظنّ بعضهم "أن الذئب شيء يطير في السماء". على كل حال، كانوا يقتلون كل شيء يمرّ مذعوراً تحت أنظارهم من ثعلب، وأرنب بري، وطائر جبلي اندفع فجأة حيث كان جاثماً هناك. دارت بالفعل معركة مضحكة. ها هو اسم "وادي الذئاب" بقي مستمراً منذ تلك الحادثة.

أنهى الشيخ هاشم قصته، وارتشف من حليب الخيول على المائدة. وأخذ

يملأ الأكواب من جديد. سألته بتلهف قائلاً:

ـــ ماذا حدث لذلك السيد القناص؟

ـــ نعم، السيد القناص؟... لقد نسيناه، أليس كذلك! ـــ قال الشـــيخ، ـــ إن أمره ليحيّر... أطلق الجنود النار بغزارة على البيت الخشـــبي، ثم بعدمـــا لم يتلقّوا أية مقاومة من داخل البيت، اقتربوا منه وتطلعوا عبر النافذة. فإذا بالســـيد القناص لم يكن في داخل البيت.

ـــ وهل هرب؟

ـــ لا ندري. لقد كان في داخل البيت ذئب أغبر يجلس مطمئناً وهو يمســـح بندقيته، هكذا سمعنا...

ـــ أتقول ذئب أغبر؟

ـــ أجل، ذئب أغبر. لعله كان ذلك الذئب الذي يضع مسدساً وينفـــخ في صفارة. فقد ارتعب الجندي، الذي نظر أولاً من النافذة، وهوى أرضـــاً فـــاقد الوعي. كذلك الذين اقتربوا خلفه تجمدوا في أماكنهم مندهشين. قيل إن الذئب الأغبر علّق بندقيته على كتفه، ثم غادر البيت مطمئناً.

ـــ ما الذي تقوله أيها الجد، وهل تحدث مثل هذه الأشياء؟

ـــ حتى أنا لم أصدق كلامهم، ـــ قال الشيخ، ـــ في ذلك اليـــوم قُبيـــل المساء أوقف الجنود المعركة في هذا المكان. استعاروا من أحد الرعـــاة عربـــة التزلج، ثم اختاروا حصاناً جيداً ليجرّها. جمعوا من البيت الخشبي بقية أغـــراض السيد القناص وألقوا بها في العربة. كما حملوا شيئا طويـــلا مغطـــى ببســـاط الصوف ووضعوه في العربة أيضاً. أتوقع أنه كان جثة. اسألني لماذا، فقد رأيـــت خيطاً أبيض كان ظاهراً من طرف البساط. وكان يتـــدلى مـــن رأس الخيـــط غضروفان للذئب...

الفتوى

قيظ، وهناك أربع شجرات توت أمام فناء الدار. وعلى إحداها يجلس راكبا على أحد الأغصان رجل يتراوح عمره بين سن الأربعين والخامس والأربعين، قصير القامة، يضع على رأسه الحليق ذي النتوء قبعة بنية اللون ومطرز عليها بأشكال صغيرة من الورود.

هذا الرجل كان روزيمت الأعسر، الساكن في هذه الحارة، ومنذ ست وثلاثين ساعة وهو جاثم على غصن التوت مثل الطير. فقد هد التعب رجليه وذراعيه حتى أخذت تؤلمه بشكل لا يطاق، كما بدأت راحتاه تتصببان عرقا. كان جسده تجتاحه الرعشة وكأنه سيسقط من هذا المكان بعد هنيهة، ويرحل إلى الجحيم. فلو أراد النزول لكان على الأرض بقفزة واحدة، ولغط في النوم على فراش وثير، وهو يشخر مثل المارد. لكن، كان هناك سبب وجيه يحول دون نزوله من غصن التوت. لأنه، حالما ينزل من التوت، فلسوف يخسر أولاده الأربعة وزوجته العريقة التي استمرت معه منذ أكثر من عشرين عاما. لهذا السبب، لم يكن يملك حولا ولا قوة سوى الجلوس هناك بصمت وانتظار فتوى الشيخ.

لقد حدث هذا الأمر بالشكل التالي. أكل روزيمت الأعسر أمس، قبل الإفطار كعادته، التوت الذي قد نضج لتوه، حتى شبع. كان يقفز من غصن إلى آخر، وهو يختار أحسن حبات التوت ليقطفها. في تلك الأثناء، استرعى انتباهه غصن ضخم يمتد إلى الأعلى. كان حجم هذا الغصن بعرض الفخذ، ورأسه

منقسم إلى فرعين. لا شك في أنه كان يصلح لاستعمالات شتى. فقد سرته هذه الفكرة.

— يا باراطجان، يا عمر، من منكم هنا؟ ناولوني المنشار فورا!

في تلك الأثناء، أقبلت من فناء الدار زوجته مانغنسا قائلة:

— نعم، ما الأمر؟

— هيا مانغنسا، ائتني بالمنشار بسرعة!

— ما حاجتك إلى المنشار في الصباح الباكر؟

— هذا. هل رأيت الغصن المتفرع؟

— أين، أي متفرع تقصد؟

— ذاك، ألا تعرفين ذاك الغصن الذي يأكل عنده الأولاد التوت؟

بعدما تطلعت مانغنسا بانتباه، تجهم وجهها على الفور. ثم قالت راغبة بإزعاجه:

— يا أبا باراط، حذار أن تقطع فاكهة الجنة هذه فتشل يداك! لا تفكر بشيء أعسر كهذا.

حين سمع روزيمت روجته تتلفظ بكلمة "أعسر"، جحظت عيناه من الغضب.

— ماذا؟ ماذا قلت؟ قولي مرة ثانية؟

أجابت مانغنسا وقد أدركت أنها تساهلت مع نفسها:

— أقول لا تقطع هذا الغصن!

— لن أترك اليوم هذا الغصن دون أن أقطعه، وحتى عندما أقطعه سأفعل ذلك تحت عينيك.

— لن أتركك تقطعه. الآن حتى أصبح أولادي، الذين لا يجيدون تسلق الشجرة، باستطاعتهم تذوق التوت.

— أنا هو الرجل. ومن هو صاحب هذا البيت في النهاية؟ أنا أم أنت؟ لم يكن مخطئا من قال إن المرأة طويلة الشعر وقصيرة العقل.

ـــ أنا أم لأولاد عدة. أنا أيضا صاحبة للبيت ولأشجار التوت هذه.
ـــ لا تثيري جنوني وائتني بالمنشار!
ـــ لن أتركك تقطعه.
ـــ إذا نزلت من التوت فـــ ..
ـــ أجل، إذا نزلت فماذا باستطاعتك فعله؟
ـــ سأصرخ بوجه امرأة جهنمية مثلك بـــ "الطلاق ثلاث مرات". كفـــى أم لا؟
ـــ ماذا؟ ماذا قلت؟
ـــ ماذا أقول برأيك، إذا نزلت من التوت علـــى الأرض فللمـــرأة مثلـــك "الطلاق ثلاث مرات". نعم، هل هذا يكفي؟ هل هذا ما كنت تريدينه؟

استدارت مانغنسا إلى الوراء وهي تحدق بزوجها طويلا بنظـــرة غاضبـــة، ثم دخلت فناء الدار باكية وبخطى متثاقلة. أما روزيمت الأعسر، الـــذي شـــاهد زوجته تغادره صامتة، فتقلص وجهه من الغضب كوجه قرد. بدأ يهبط أغصـــلن التوت عاضا على شفته السفلى بمظهر يشبه كما لو أنه سيقيم الدار ولا يقعدهـــا إذا ما دخل إليها. لكن، ما إن كادت قدمه تلامس الأرض حتى تذكـــر علـــى الفور ما قاله لامرأته منذ قليل وهو يصرخ بوجهها، فتوقف في المكـــان نفســـه كأنما لدغه العقرب، وعانق التوت بقوة، ثم صعد، رويدا رويـــدا، نحـــو رأس الشجرة من جديد..

خاصرته، رجلاه وذراعاه كانت تؤلمه بشدة. وكان السهر علـــى الشـــجرة والإرهاق يعذبانه بلا شفقة. حاول التحرك قليلا فإذا بسرواله يتمـــزق بـــأحد الأغصان الجافة، الذي تعلق به. وحتى إنه لم يتمزق إلا في مكان حساس. كـــان يشتم أناسا وصولا حتى آخر أجدادهم بما يتلقفه لسانه من كلمات بذيئـــة. لاح له شخص يمر بجانب التوت. فبقي صامتا يعانق التوت ولا يجرؤ حتى أن يتنفـــس براحة. كان القادم هو الشيخ نوراخون أحد جيرانه البعيدين، وأحد المرتـــادين

المتحمّسين لمسجد الحارة. دنا من التوت، وبدأ يتفحّص بنظراته أعالي التـــوت بانتباه. وبعدما شاهد روزيمت الأعسر، سأله:

ــ السلام عليكم أيها السيد روزيمت، وهل أنت موجود؟

ــ وعليكم السلام يا شيخي، من أين أشرقت الشمس اليوم، حتى اتّجـــهت نحونا خطاك؟

ــ لا نقف البتّة مكتوفي الأيدي عندما نراك وقد ألمت بك مصيبة! أتيت وأنا مهموم لما حصل لك..

ــ شكراً لقدومك يا شيخي.

ــ اليوم، بعد صلاة الجمعة، سمعت بأنّ إمام الجامع سأل فضيلة الشيخ الحاج عثمان أن يصدر فتوى بشأن ما أنت فيه. فأملى فضيلة الشـــيخ فتـــواه علـــى الورقة. ولهذا السبب، الجماعة في طريقها إلى داركم. أرسلوني على عجل قبـــل موعد الاجتماع لكي يكون هناك متّسع من الوقت لدى السيدة مانغنسا حـــتى تصل الجماعة. وما دام الأمر يتعلّق بالدعاء وتلاوة آيات من القرآن، فجئـــت أسألكم ما إذا كان علينا تحضير بعض المأكولات.

ــ أشكرك. هناك في الحظيرة جديان غير مقصوصَي الفرو. ليتـــك تعمـــل عوضاً عني وتسلقهما في القدر، إذا لا ترى فيه إزعاجاً لك. ليس من الســـهل إحضار ضيوف أمثالهم إلى هنا حتى لو وجّهنا إليهم دعوة. بودّي الترول، ولكن ذاك الأمر..

ــ فليكن، يا سيد روزيمت. إنّ للدعاء والتلاوة بركةً عظيمة. سأنهمك فـوراً بما هو مطلوب.

هكذا أجاب متّجهاً داخل فناء الدار. ما هي إلاّ لحظات حتى ارتفع في الهـواء صوت عترة أليم. كان روزيمت الأعسر راضياً وهو في وضعه هذا لا أن تُذبـــح عترة، فحسب، وإنما حتى الحصان أو الجمل. لأنّ فكره كـــان مشـــغولاً في أن ينجو بجلده سريعاً من غضن هذا التوت اللعين. بدأ ينظر باتّجاه الطريق، الـــتي

كان الشيخ توراخون قد أتى منها. لاح هناك الشلحنات، الجرّارات، الراكبون على الدراجات الهوائية، المترجّلون، الذين يمرّون في الطريق. ثم، بعد فترة قصيرة، أقبل بضعة رجال يقودهم الإمام.

ــ السلام عليكم أيها السيد روزيمت!

حيّاه أحدهم من البعيد.

ــ وعليكم السلام، أهلاً بقدومكم إلى هنا!

ــ السيد روزيمت، هل هربت إلى البيت أثناء الليل والنهار لتشبع النوم، ثم تسلّقت اليوم من جديد إلى أعلى التوت أم أنت جالس هناك منذ يوم أمس؟

ــ تفضّلوا، أجل يا أعزّائي، ليتني أطير إليكم هذه اللحظة وآخذكم جميعاً بالحضن. لكنّي بسبب ذاك الكلام المحرج.. يبدو أنّ طريق العيش بأحكام الإسلام، يا أعزّائي، يتطلّب منا ذلك.

وكأنما تصعد رئته نحو حنجرته، أخذ لسان روزيمت الأعسر يعجز عن النطق.

ــ إنّ الصبر يخفّف من الذنوب. ينبغي ألاّ يلفظ الفم بسهولة مثل هذه الكلمات الآثمة. رغم ذلك، يغفر الله لنا إن كنا تائبين.

قال الإمام. وفي تلك اللحظة، أقبلت نحوهم من فناء الدار مانغنسا زوجة روزيمت الأعسر. كانت تغطّي رأسها بشال، تاركةً نصف وجهها مكشوفاً. قالت، وهي تستر بطرف من الشال صدرها البارز إلى الأمام:

ــ أهلاً بقدومكم إلى هنا، هيا تفضّلوا بالدخول إلى الدار!

ــ هيا، تفضّل يا إمامنا.

سار الإمام في المقدّمة. أما مانغنسا فتبعت الضيوف بعدما ألقت نظرةً خاطفة إلى أعلى شجرة التوت. في تلك الأثناء، التفت الإمام إلى مانغنسا:

ــ أختي، جهّزي على الفور إحدى الدواب، لا بأس وإن كانت خيلاً أو بقرةً، وحتى حماراً. المهمّ أن يكون دابة يمكن الركوب عليه.

ـــ لدينا حمار، هناك، في الحظيرة، وقد أصبح عصبي المزاح من الفراغ بـــلا عمل.

قالت بنبرة خجولة. فأجاب الإمام:

ـــ حسنا، إذن، ألبسيه السرج، ثم أخرجيه.

في تلك اللحظة، خطى أحدهم الأصغر سنا بين الضيوف، قائلا "دعوني أنـــا أقوم بذلك". أخرج من الحظيرة الحمار الذي لم يهدأ لحظة كالنابض من شـــدة الملل، وبدأ يسرجه. أما الحمار فأخذ ينفخ في الهواء، ثم ملأ فناء الدار كله وهـــو ينهق فترة طويلة جدا، وبأقصى ما لديه من قوة، مرسلا صوته في الوقت نفســـه من الأمام ومن الخلف..

حينما أنزلت الجماعة أياديها بعد انتهاء الدعاء، كان الحمار أيضا قد أســـرج وأصبح جاهزا. وجه الإمام كلامه إلى ذلك الضيف الذي كان يقـــف هنـــاك ممسكا بيده لجام الحمار:

ـــ اخرج بهذا الحيوان إلى جانب التوت، وأمسك به جيدا هناك. دع الســـيد روزيمت يهبط من أعلى التوت فوق الحمار مباشرة. ولكن، يجب ألا تلامـــس قدماه الأرض. وبعدما يجلس على الحمار جيدا، دعه يطوف الحارة تسع مرات، ثم يجوز له أن يترجل من الدابة.

حينما وصل ذاك الرجل مع الحمار إلى جانب التوت، كان روزيمت أيضا قد هبط إلى مكان أعلى بقليل من ظهر الحمار. لم يحاول كثيرا أن يستر عورته أمام الرجل الممسك بالحمار، حتى حط على ظهر الحمار بسرعة وبخفة، كما اجتـــاح الحارة فوق الحمار المنطلق بأقصى سرعة، تاركا وراءه سحابة من الغبار الكثيف ورائحة كريهة. إنه، في تلك اللحظة، كان راضيا حتى أن يطوف الحارة تســـعين مرة. عاد روزيمت إلى فناء الدار، بعد أن طاف في الحارة يمنة ويسرة، وأكثر من عشر مرات، وهو ينطلق على حماره، ثم، دونما يترجل من الحمار، اتجه مباشـــرة نحو الحظيرة.

ـــ كفى، يا سيد روزيمت، لا داع لأن تدخل إلى الحظيرة وتبقى هناك أيضاً لبضعة أيام جالساً فوق الدابة، بإمكانك أن تترجّل الآن.

قال أحد من بين الجماعة. لكنّ روزيمت الأعسر ما كان يبدو أنّه سيعير أدنى اهتمام لكلامه. كان همّه أن يجد مكاناً يخفي فيه نفسه. وفي تلك الأثناء، يبدو أنّ مانغنسا، التي كانت منهمكة بأمور الطبخ، قد أحسّت بأمرٍ ما، فاقتربت منه، ثم نظرت إلى هيئة روزيمت وقد تمكّن من إخفاء نفسه وراء الحمار، حيث ضغطت بأسنانها على شفتها السفلى مانعةً نفسها من الضحك، بعد ذلك، ودون تأخّر، ناولته سريعاً ثيابه النظيفة، المغسولة من قبل. لم يستطع روزيمت الأعسر أن يخرج أمام الضيوف لفترةٍ طويلة حتى بعد أن دخل الحظيرة وربط الحمار. لأنّه كان منشغلاً بأموره المتراكمة منذ ثمان وأربعين ساعة.

الضيوف، الذين أتخموا بلحم الجدي المسلوق بشكل جيد ، بعدما غسلوا أياديهم وقد غمروا مانغنسا وروزيمت بعبارات الإطراء، استمرّوا في الدعاء فترةً مديدة للغاية تاركين أياديهم معلّقةً في الهواء. كان القلق البادي في وجه روزيمت لم يتلاشَ بعد. إذ كان يرمق الإمام بنظرةٍ مستجدية بين حينٍ وآخر. أما الإمام ذو الوجه النحيل والطويل، والمغطّى بالنّمش، فكان منهمكاً بتنظيف أسنانه المتباعدة عن بعضها من فضلات اللحم. وبعد فترة طويلة، عندما استطاع أن يتجشأ مرة أو مرتين، سحب باعتناء من جيب عباءته ورقة، ثم توجه بنظراته نحو الجماعة التي كانت ما تزال تتطلع إليه.

ـــ اليوم، يوم الجمعة العظيم، لقد حصلت على بركة أن ألتقي بفضيلة الشيخ الحاج عثمان، كما صارحت فضيلته بالأوضاع المتعلقة بالمسلم المؤمن في حارتنا السيد روزيمت، وكيف أنه أقسم في ثورة غضبه على يمين الطلاق من حرمته السيدة مانغنسا. إذ بعد أن دعاني فضيلته إلى مترله، واستضافني بالمأكولات اللذيذة، قادني إلى مكتبته المباركة حيث أراني كتبا كثيرة. تمايل الإمام إلى جنبيه كما لو أنه يقول لمن حوله "كيف، هل رأيتم مدى الاحترام الذي عاملني به

فضيلة الشيخ"، ثم أردف يقول، ـــ فقد تأكدت من حقيقة العظمة التي تتحلى بها تلك الشخصية. كانت الرفوف مليئة بالكتب العربية والفارسية والتركية. إن فضيلته، بعد أن انتهى من مراجعة بضعة كتب، دون لي هذه الفتوى، التي ها أنا الآن بصدد تلاوتها على مسامعكم. تنحنح الإمام، ثم بدأ يتلو ما يلي، واهبا لصوته نبرة مرتعشة، ذلك الصوت المبحوح كصوت الديك الهرم الذي شبع بطنه حتى التخمة:

"بسم الله الرحمن الرحيم. يا أهل الجماعة المحترمون، وصلنا اليوم من قبل إمام حارتكم المقرئ الشيخ حامد خبر ما تفوه به المسلم المؤمن السيد روزيمت من بعض الكلمات المحرجة المسيئة بحق عقد القران إزاء حرمته السيدة مانغنسا وهو في ثورة غضبه واقفا على غصن التوت لقطع أحد أغصان تلك الشجرة المثمرة المباركة في الجنة. وإننا، وبعد مراجعة بعض الكتب حول أحكام الشريعة وبناءا على تعاليم العلماء والأولياء العظام الذين عاشوا قبلنا ارتأينا لأنفسنا أن نصدر فتوى كالتالي: أولا، تفوه السيد روزيمت بتلك الكلمات المحرجة في ثورة غضبه كما لم يكن بجانبه من شاهد سوى حرمته السيدة مانغنسا. ثانيا، لم يتفوه بها على الأرض حيث قدماه في التراب، وإنما في السماء وعلى الشجرة. ثالثا، وقد أصبح لدينا علم بوجود شرط قبل التفوه بهذه الكلمات ألا وهو "إذا نزلت من على الشجرة..". فإننا، بناءا على ما سبق، أي عدم وجود أي شاهد، وكونه لم يتفوه على التراب بل تفوه من ثم معلقا في الهواء وتحت ذاك الشرط، نقول ببقائه في الهواء أي عدم نزوله من شجرة الجنة المثمرة المباركة، لكن يجوز أن ينزل من على أحد الدواب ويستمر في العيش مع أولاده، بهذا لن يكون هناك ريب في عقد القران. حذار من أن تلامس قدماه الأرض وهو ينتقل من التوت إلى ظهر الدابة كذلك فليعلن أنه قد نزل من الدابة إلى الأرض بعد أن يطوف الحارة ثلاث مرات. نرجو إعلام القوم جميعهم بهذه الفتوى بغية أن يستخلصوا من هذا الأمر عبرة لهم. راجيا من الله تعالى لكم دوام الصحة: الشيخ الحاج

عثمان. في × جمادى الآخر، سنة × الهجرية".

توقف الإمام من القراءة، وأجال بنظره حوله، ثم قال:

ـــ هيا، إذن، الدعاء من أجل احترام الفتوى وبركة الطعام.

رفع الجميع أياديهم.

إن روزيمت الأعسر، بهذه الفتوى التي تكرم بها فضيلة الشيخ عثمان عما تفوه به لمانغنسا كـ "الطلاق ثلاث مرات"، واصل مع عائلته حياته العامرة بالوئام والسعادة.

عمر قادر

الرجاء

-١-

عندما ظهر رجل أسمر أمامي كما لو انبثق من تحت الأرض، كنت قادمة في طريق ترابي للقرية حاملة على ظهري حزمة أعشاب.

ـــ سيدتي، من تكونين؟

كنت أتصبب عرقا من حرارة الجو الخانقة ورائحة العشب المر. وكان فستاني ملتصقا بعرق جسدي. تلفت حولي مرتبكة. هناك ساقية تجري مسقسقة في الحديقة. ثم تتراءى على امتداد البصر حقول شاسعة للذرة الصفراء. كان المحيط يلفه السكون وكأن كل شيء غارق في النوم.

ـــ سيدتي!..

مر شهر تقريبا على زواجي. كان سوار فضي رخيص الثمن يلمع بساعدي، وعلى عنقي طوق من لآلئ نقية. وكنت أعتبر النظر إلى عيون رجال غرباء والإجابة على أسئلتهم إثما لا يغتفر.

ـــ أنا عمدة القرية رحمان!

الرجل الواقف أمامي تكلم بنبرة فيها غرور ولطف. وحينما عرفت أنه من وجهاء القرية أجبته على الفور مطأطئة رأسي نحو الأرض.

ـــ أنا آلتونغول، زوجة طالب.

منذ ذلك الحين، أخذ بيتنا الذي يقع بين أشجار الحور الكثيفة في أسفل التل يعج بالناس. في ما مضى، كان يسمع حفيف أوراق الشجر وحده في ليال

مظلمة مثيراً في نفسي الاضطراب والخوف. والآن حل محله الصخب المجنون لمجموعة من الناس حيث يغنون، ويصفرون، ويتجاذبون أطراف الحديث متعلقين بأعناق بعضهم. ووقع على كاهلي مثل الجبل أعمال لا تنتهي كطهي البيض واللحم لهؤلاء السكارى، وتحضير الشاي، وتنظيف أرض الدار من قيئهم، وتجهيز الفراش لمن سقط من السكر. ولم أكن أستطيع فعل شيء سوى أن أصبر بصمت. كما أن طالباً لم يكن يفكر لماذا لا تقام هذه الحفلات إلا في بيتنا، ولا تذبح تلك الأكباش إلا في فناء دارنا. لعله كان يحسب أن قدوم عمدة القرية إلى عتبة دارنا هبة من الله. كان يبتسم كأنما يحس بالفخر وهو ينظر إلى قناني الكحول الفارغة التي تتكوم في زاوية الفناء والعظام المتناثرة حول الصحن الذي يأكل منه الكلب. وكانت الكحول قد تركت في دماغه أثرها الفتاك بحيث أخذت ملامح الطيبة والبساطة تختفي من وجهه يوماً بعد يوم.

في مساء أحد الأيام، أقيمت من جديد حفلة في فناء الدار. حيث ألهب الرقص كل المحتفلين. كان الرجال الثملون يدورون متقطعي الأنفاس وهم يتعلقون بأكتاف النساء. بدأ عمدة القرية رحمان يرمقني بنظراته، غامزاً بعينه بين لحظة وأخرى، وهو يداعب بيده بطنه التي لا تكاد تتسع داخل قميصه الناصع البياض. وأما طالب فكان يتمدد فوق التبن عند طرف الفناء متهالكاً من السكر. كان البيت غارقاً في دوامة من القهقهات والأغاني وصرخات السكرانين. أحسست بقلبي يضطرب بشدة. كان المحتفلون منهمكين بغبطتهم ما عداي.

ـــ آلتونغول، مولاتي، دعينا نرقص..

تقدمت نحوه وأنا مدركة أنني لا أجيد الرقص مطلقاً. أمسك عمدة القرية يدي براحة كفه الممتلئة بالشحوم. ولف بيده الأخرى خصري النحيل. كان صدره يهتز كسنام الجمل. وكانت رائحة مرة تتصاعد من عرق جسمه وتزكم أنفي. رجلاي كانتا تتحركان خبط عشواء. ونهداي المرتفعان تحت فستاني

الرقيق كان يلامسهما بين لحظة وأخرى صدره نصف العاري والمغطى بالشعر. وهو يرقص تطلع بنظراته الوقحة في عينيّ، وفي عنقي، ثم في صدري. وبعد ذلك، عندما اعتقد بأنه قد أوقعني في يده، قال وعيناه تقدحان برغبة متوحشة:

— كانت خسارة عندما تزوجت طالباً يا حلوتي، إنك حقاً امرأة رائعة مثل اسمك!*

ثم أنزل يده تحت خصري وبدأ يلمس ردفيّ. فقلت له محتدة:

— لا داع لأن تتصرف معي هكذا بوقاحة.

قال العمدة وهو لا يزال متمسكاً بي:

— كل النساء يتصرفن هكذا. لكنهن يقدمن أنفسهن في النهاية. لقد أغرمت بك وانتهى الأمر. لسوف تصبحين خليلتي من كل بد، كما أنني سأغدق عليك بالمال والفساتين. ها أنا سأقدم لك ما لم يستطع زوجك تقديمه. فقد جعلت طالباً والذي لم يتعاطَ الكحول طول حياته يعشق الخمر. وحتى إنني جعلته يسقط ثملاً. وأنت أيضاً كذلك. إن النساء الجميلات في هذه القرية تحت تصرفي!

النساء الثملات تحت تأثير النبيذ كنّ يتحدثن مع الرجال مسندات رؤوسهن على أكتافهم. وبعض من فقدوا وعيهم من الكحول كانوا يغفون. فما كان هناك من أحد يهتم بأحد. انتزعت نفسي من قبضة العمدة مندفعةً نحو طالب.

— انهض يا سافل، وهل تتركني هكذا للآخرين؟ أقول لك انهض، إذا كنت رجلاً..!

رفسته في خاصرته عدة رفسات. لكنه كان يتمدد كالميت لا يحس بأي شيء. تطلعت إلى السماء حيث ترسل النجوم أنوارها الخافتة. رطب الدمع أهدابي. أحسست بالجنين، الذي سيولد بعد بضعة شهور، وكأنه يتحرك لاكماً بطني برجليه. تقدم العمدة نحوي كالذئب المسعور.

---

* آلتونغول تعني الزهرة الذهبية في اللغة الأويغورية. مترجم

— لا تقترب! وإلا قطعت رأسك بالمنجل.

سحبت بسرعة المنجل المغروز في السور المحيط حول البيت. فتراجع إلى الوراء ببطء، كأنما خاف من التهديد، شاتماً إياي "مجنونة". أنا أيضاً ألحقته بشتيمة:

— حيوان!

ثم تلاشى صوتي الرهيب في غياهب الليل. وقد توقف القمر المنبثق من بين الغيوم الكثيفة فوق أشجار الحور العالية.

بعد ذلك، حتى الأصوات الصاخبة في فناء البيت تلاشت سريعاً. وأعصابي المتعبة أيضاً هدأت قليلاً. لكن، لقد أصبح طالب سكيراً. وأما عمدة القرية رحمان، الذي جعله يدمن على الكحول، فكان يتجول مشرئب القامة مغتراً بنفسه. إن الدموع التي ذرفتها عيناي وأنا أتوسل إليه، والمشاجرات التي لطالما افتعلتها لم تحل دون استمرار طالب في هذا الطريق. كان يغادر يومياً إلى سوق القرية. ويشرب الكحول حتى الثمالة، ثم يسقط فوق إسفلت الطريق مع الدراجة الهوائية حيث يبقى هناك متمدداً فاقد الوعي. هكذا مرت الأيام وولد الطفل. كم من ليالٍ أمضيتها مضطربة وخائفة وأنا أسهر على حفيف الأوراق لأشجار الحور الكثيفة. وكم رطبت دموعي الساخنة وجه طفلي. فلقد سئمتْ روحي هذه الحياة المعذبة غير المجدية، التي تعيد نفسها بأن أحضر طالباً إلى البيت على مدار الأيام محمولاً على عربة يجرها الحمار. ثم، وكأن هذه الآلام لا تكفي، فقد أصبح حتى الشباب السوقيين في الحارة يعترضون طريقي كلما سنحت لهم الفرصة لذلك، ويصفرون حول بيتنا حالما يهبط المساء. كانوا يعرفون جيداً أن طالباً منهمك بتعاطي الكحول من الصباح إلى المساء غير عابئ بشؤون البيت وبي. وكانوا يتمنون أن يستمتعوا بجمالي وأنوثتي ويرتووا من رغبتهم المتعطشة. لكني بكل حذق استطعت أن أتصدى لتوسلاتهم، وهداياهم، وحتى تلميحاتهم بالتهديد. كان ارتكاب الإثم وخيانة الزوج بمثابة عذاب في نار

جهنم بالنسبة لي. لكم كنت سأفرح من كل جوارحي لو يحس طالب بالإخلاص الذي أكنه له، ويعود مثلما كان في الأيام الأولى لزواجنا! لكن الأمور لم تكن تسير كما أتمناها. وقد اختفى من البيت كل غرض يمكن بيعه واحدا تلو الآخر، وحتى الدجاجات الأربع التي كانت تبيض لنا كل يوم ذهبت ثمنا لزجاجات الكحول. كم مرة سقط طالب من أعلى دراجته الهوائية في حفر عميقة، وفوق إسفلت الطريق، حتى أصبح شيئا فشيئا يعرج في إحدى ساقيه. لكنه كان أيضا يذهب إلى سوق القرية سائرا على قدمه العرجاء. وأحيانا، كان يعود إلى البيت ملطخا بدمه وقد أشبع ضربا مبرحا من الآخرين. فيما بعد، تفاجأ بأنه لا يستطيع المشي على قدميه. فقد انتفخت ركبته اليمنى بشكل مخيف. وفي الأيام التي تغيم فيها السماء أو تمطر، كان يرفع صوته بالأنين والبكاء من شدة الألم. فكان يتوسل إلي، ويتأسف أمامي، ويطلب مني الصفح. أحسست فجأة بالشفقة عليه.

ـــ هذه مساهمة منا. إنها قليلة، لكنها تساعدكم في محنتكما. تفضلي.

ناولني رئيس المجموعة ورقة نقدية من فئة مائة يوان. ثم أردف:

ـــ أنتما ذاهبان إلى مدينة بعيدة، اعتنيا بنفسكما. نحن سنهتم بالأمور هنا!

بعدما اتخذ طالب مكانه في الحافلة بمشقة، لمع الدمع في عينيه. كان قد جاء بضعة أشخاص إلى سوق القرية لتوديعنا. أنا أيضا تدفق الدم في عروقي وتسارعت نبضات قلبي. وشعرت بانفعال شديد يكتنف كياني. ظل طالب فترة طويلة يودع بنظراته الطريق الإسفلتي الضيق غير المستوي الذي كان لطالما سقط فوقه مغميا عليه، والحفر العميقة، والخمارة التي فتحت أبوابها منذ الصباح الباكر.

انطلقت الحافلة. تناءت خلفنا السماء النقية لقريتنا، ونسائمها المنعشة، وأنهارها الجارية بين حقول القصب الصفراء. وهناك، في مكان قريب، كانت الجبال الجرداء تضطجع بحزن مستغرقة في الصمت.

-٢-

في الخارج، يهطل الثلج بغزارة. أشجار السرو والمباني العالية تسبح في ضباب رمادي اللون. تهب عاصفة ثلجية، وتصدم بشدة زجاج النافذة. بدأت أفقد السيطرة على نفسي من الجوع الذي يلتهمني. اشتد الألم في رأسي، وأظلم بصري. بدأت أحس بأن الردهة الضيقة للمستشفى والأرض التي غمرها الثلج تدوران بي. مذ ولدت ووعيت على نفسي لم أذق مرارة الجوع كما هو اليوم، ولم تجف شفتي متشققة كما هي الآن. وها هي الحياة المفجعة تفتح لي ذراعيها في هذه المدينة الغريبة. إن ورقا سحريا يسمى النقود ورغيف خبز قد أصبح شيئا فائق الأهمية يحدد مصيري بالموت أو الحياة. أحسست بأن النقود مارد بملايين الألوان يغرز أظافره الحديدية في لحمي. لقد سلمنا نحن أيضا للمستشفى مبلغا قدره ثلاثة آلاف يوان كوديعة بناء على طلب الطبيب. هكذا خصص أخيرا سرير لطالب في أحد الأجنحة للمستشفى. إنما فرغت أيدينا من آخر فن مما نملكه من نقود. ولم نستطع أن نراسل القرية طلبا للمساعدة، لأننا كنا قد تركناهم ونحن غارقون بالديون. فلم يبق هناك أحد يمكننا أن نستلف منه. وحده العمدة رحمان كان بمقدوره إقراضنا عن طريق مصرف القرية إذا رجوته وتوسلت إليه. لكنه لن يتركني وشأني إلا وينال مني ثمنا لذلك. ما العمل؟ وقد فرغ البيت أيضا من كل شيء يمكن بيعه.

ـــ إن زوجك قد نفد صبره من الجوع، ليتك تحضرين له شيئا من السوق ليأكله.

انتزعت نظراتي من الضباب الجاثم في الخارج مستديرا ورائي. كان يقف أمامي رجل بدين ذو شاربين ويقارب الأربعين من عمره محدقا بي كمن يأمر. إنه كان شخصا يدعى عباسا، الذي يعتني بأخيه الصغير المريض في الغرفة نفسها حيث يقطن طالب. ثم أردف يقول بعدما رآني صامتة:

ـــ لقد سمعت أوامر الطبيب، فقد طلب منك أن تغذيه بحساء لحم إذا أمكن. في حين أنك لم تقدمي لزوجك منذ يومين سوى خبز جاف وشـــاي. ليتـــك تعطفي عليه قليلا. فهو زوجك في النهاية وحتى لو كان بلا ساق. هو نفســه لم يكن يريد أن يصبح أعرج، فقد وقع عليه المحراث في الحقل! إن النقود ســـتنفد منك في النهاية مهما حاولت توفيرها. ولكن روح إنسان أثمن مـــن النقـــود. اعذريني على هذه النصيحة التي أسديتها لك. كان علي ألا أتكلم. إنمـــا أثـــار ثائرتي ما كنت تتصرفين به إزاء زوجك من لا مبالاة منذ يومـــين. هـــا هـــو زوجك يستلقي ملتفتا بوجهه نحو الحائط والدموع في عينيه. أما أنـــت فمنـــذ الصباح واقفة أمام هذه النافذة تنظرين إلى الخارج.

ضغطت بأسناني على شفتي التي جفت. أحسست بكياني يتآكل كمـــا لـــو يشتعل بشدة بين كومة حريق. وتدفق الدمع من عيني بدون إرادة. ليس هنـــاك من أحد في العالم كان يدرك كم أنا جائعة، وأن أحشائي ملتصقـــة ببعضـــها البعض. كانت ساقاي ترتجفان من الوهن وكأنهما ستلتويان. وكان الألم يعصـــر رأسي بشدة كأن طوقا معدنيا يحصره. لكم كنت مسكينة، يائسة، وأنا أحـــس بأن قلبي وعقلي وكل جزء مني قد جف وأصبح يابســـا. فجـــأة، أحسســـت بالكراهية إزاء طالب. إنه، في كل مرة يجري الحديث فيها عن ســـاقه، كـــان يكذب بأنها بقيت تحت المحراث بعد أن هاج الثور في الحقل. لكن الطبيب لامـــه بشدة عند أول تشخيص، وأثبت أن عظام ركبته قد تأذت من كثرة السقطات. كان لا يجرؤ على المكاشفة بأن مآله إلى هذه الحالة هو تعاطي الكحول.

ظلت أسئلة عباس بلا جواب، فيما كنت أرنو بنظراتي إلى عينيه. كان يمـتزج بهذه النظرات أيضا الحزن، الحاجة، الألم، والرجاء. وكان عقلي كأنما فقد كـــل سيطرة يدفع نحوه ببطء كياني المهشم. ولم أجرؤ على مصارحته بأني وحيـــدة وكئيبة وبلا نقود، وبأننا أنا وطالب جائعان. وإنما عينـــاي الغائرتـــان كانتـــا تبوحان بكل شيء. وددت أن أعانقه وأبكي، أن أركع عنـــد قدميـــه أطلـــب

المساعدة. إن من أعرفه في هذه المدينة كان وحده هو عباس. رويـــدا رويـــدا بدأت رعشة تكتنف جسدي المتهالك. وتداعيات أخذت تتلاطم في ذاكـــرتي. كان عباس، كأنما لم يع شيئا، يحدق عبر النافذة بالظلام الذي يلف المحيط. شيء في داخلي كان يطالبني بأن لا أخسره. فقد غدت حواسي كلها أسيرة رغبـــة متوحشة بالتوسل إلى رجل غريب والاستسلام له. إني لأؤكد أن أية امـــرأة في العالم حينما تعاني عذاب الجوع والعوز سوف تجد نفسها في وضع كوضعـــي الآن.

ـــ ليتك تشتري لي شيئا أسد به رمقي.

تفوهت بنبرة توسل. كان صوتي مرتعشا. إذ سرعان ما استدار عباس وكـأن برقا قصف رأسه، ثم تسمر مرتبكا. لقد كان أول طلب أعرضه على رجل منـذ أن وعيت على نفسي. وما إن تفوهت بتلك الكلمات حتى انخرطت بالبكـــاء. كان القهر يثور من أعماقي كالبراكين. والعار والذل، الجوع والعوز كل ذلـك ضغط بشدة على قلبي.

-٣-

الردهة الطويلة، التي تصل عدة مباني ببعضها البعض، كان يلفها الســـكون حالما يهبط المساء. والأمكنة الخالية في كل منعطف، والفراغ تحت السلالم كـلن أكثر رهبة وهدوء تحت أضواء خافتة للمصابيح. وحدها رائحة الأدوية كـــانت تنبعث من الجوار. هبطت الدرجات مترنحة كالشبح نحو فراغ مظلـــم تحـــت السلالم. كانت نظراتي مليئة بالخوف والقلق كنظرات قاتل. جســـدي كلـــه يتصبب عرقا. عانقني عباس بقوة، وبدأ يقبلني بوحشية ضاغطا بذقنـــه المليئـــة بالشعر على وجهي. لكن، لم يكن لدي أية عاطفة. كما لم يبق لي مجال ســوى أن أعض على شفتي وأتحمل كل رغباته وحركاته. كان علـــي الآن أن أقـــدم نفسي له بلا أية مقاومة ما لم يستطع العمدة رحمان الحصول عليه، في ما مضى،

وهو يذبح لي عدة أكباش، ويفرغ مئات الزجاجات من الكحول، ويعـــرض لي عدة رزم من النقود. إنني أحزن على نفسي كثيرا. ففي ما مضى، كان خـــيرة شباب القرية لا يبرحون أسوار بيتي حائمين حولي في ليالي الصيـــف المقمـــرة. كانت تضطرم في قلوبهم نار الغرام، كانوا يصفرون، يغنون، يعبرون عن شوقهم وعن حبهم اللا نهائي. أما أنا فكنت أستمع إلى هذه الأناشيد المسكرة الممتزجـة بحفيف أوراق الحور، وأرنو بنظراتي إلى النجوم التي لا عد لها في الســماء، وإلى القمر الذي يسبح هناك بخفة كالريش. يا لها من أيام رائعة للغاية، ولا يمكنها أن تنسى! كان الشباب يودون أن أستريح في حقول الحنطة أو الذرة الصفـــراء في أيام الحصاد، أو في أيام العمل الطوعي، لكي يستمتعوا بالنظر إلي وهم يقومـون بالأعمال كلها. كانوا يعجبون بجمالي. ولكنهم كانوا يخافون من طالب. وأمـــا الآن فطبق من المعكرونة قد دمر كل رغبـــاتي وأمـــاني، إيمـــاني وإخلاصـــي، والعواطف التي كانت تختلج في قلبي.

ينفعل عباس، تتسارع أنفاسه. فرش الأرض الإسمنتية بقصاصات من جرائـــد جهزها من قبل، ثم نزع عنه معطفه الطويل من الصوف. كانت المســافة بـــين الغرفة التي ينام فيها طالب وهذا المكان قريبة جدا. وحين أفكر بذلـــك كـــان يجتاح كياني خوف رهيب كما لو أنه سيذبح عنقي على الفور بسكين. بـــدأ عباس يتلمس أزرار فستاني من جديد وهو يعانقني من خصـــري. وفي تلـــك اللحظة، برقت في رأسي فكرة رهيبة. كان علي أن أنقذ طالبا أيضـــا لا أنـــا وحسب. قلت له وأنا أمسك يده بقوة مع المداعبات والدلال الذي لم أفعلـــه أبدا من قبل:

ــ لا تستعجل، لا داع لهذه العجلة كلها. وهل تظن الأمر سهلا إلى هـــذا الحد مقابل صحن من المعكرونة؟ انظر، ألست جميلة، وصغيرة..

لم أشعر بنفسي كيف تفوهت بهذه الكلمات. وحتى إنني لم أع نفسي مـــع من أنا وأين. وحدها حشرجة منفعلة مكتومة كانت تستمر في سمعي.

ـــ اطلبي ما تشائين، لقد جعلتني اليوم أسير هواك.

فتش عباس في جيبه مواصلا كلامه:

ـــ سأجعلك راضية. وزوجك أيضا لن يجوع. ها هي النقود، خذي! عديها فيما بعد. هيا أسرعي!

انتقلت حفنة من النقود من يده إلى يدي. شعرت فجأة بـــروح تـــدب في كياني. شرع قلبي يخفق من شدة الانفعال. لم أتمالك نفسي أبدا وكأن شمســـا أشرقت من هذا الفراغ الساكن المظلم تحت السلالم. وقد نسيت كل شـــيء، وطالبا، وابني الذي تركته بعيدا، والعمدة رحمان، وشـــباب قريتنـــا، وهـــذه المستشفى، والعالم الذي ينوء تحت الثلوج. إن إحساسا دافئا منح كياني المتيبـــس لذة لا حدود لها.

انتهى الأمر. ظل عباس متمددا شارد الذهن. وأنا أيضا لم أحس لفترة مـــن الزمن بذراعي ورأسي وساقي العاريتين فوق الإسمنت البارد كالجليد. تـــراءى لي فجأة كما لو تحدق بي من الظلام عينا طالب، المعذبتان، الغاضبتـــان، اللتـــان تقدحان شررا ووحشية. فسرعان ما ارتديت ثيابي، ثم غادرت تحت الســـلالم متجهة نحو مرحاض ينيره مصباح. بيدي حفنة من النقود. لم أشم حتى الرائحـــة الكريهة في المرحاض. عددت النقود مرة تلو الأخرى. فقـــد أعطـــاني عبـــاس ثلاثمائة وسبعة وخمسين يوانا. أخذتني الدهشة من أنني خلال بضع ساعات قـــد أنجزت معجزة. إن كسب المال لم يكن يتخيله عقلي الساذج إلا مـــن خـــلال العمل الشاق في البيادر، كالحمار، أيام الحصاد وتحت شمس الصيف الحارقـــة. ولكن، رغم ذلك العمل الدؤوب، ليس بالإمكان كسب مال بهذا المقـــدار وفي مرة واحدة. وضعت النقود تحت جوربي بعناية، ثم خطوت متجهة نحو الغرفـــة. كان عباس قد وصل قبلي إلى الغرفة واستلقى ملتصقا بأخيه.

ـــ أين كنت؟

جاء صوت طالب المكتوم والحزين.

لقد أصبح شعر ذقنه طويلا وشفتاه متشققتين كأنه شاخ خلال يوم واحـــد. وكان عذاب لا يعرف كنهه يختبئ في عينيه الذابلتين. حرك شفتيه عندمـــا رآني لا أنبس ببنت شفة قائلا:

ـــ إني أكلمك؟ لقد شعرت بالوحدة بدونك.

حشرت جسدي بجانبه متمددة دون أن أجيب، ثم حاولت أن أجبر نفســـي على النوم. بدا أنني لن أغفو. غمرني إحساس بأن حفنة النقود تلك التي تحـــت جوربي ستنقلب فورا إلى أفعى سامة وتلدغ جسدي. هناك في قلـــبي كـــانت دوامة تشكلت من القلق والخوف ومن ثم القليل من الفرح. وعلى بعد مســـافة متر كان عباس يتمدد بأنفاسه العميقة والحزينة. أما طالب فقد صمت كما لـــو أنه سيستدير نحوي بعد لحظات ويضغط بقبضتيه على عنقي حتى أموت. بـــدأ العالم يبدو لي ضيقا ومظلما وجاحدا للغاية. وقد اتخذ في مخيلتي كل من عبـــاس وطالب أحدهما هيئة الذئب والآخر هيئة الحمل.

بدءا من اليوم التالي أصبح طالب يتناول حساء اللحم. وأنا أيضـــا بـــدأت أتناول أطعمة جيدة. إنما عباس غدا أكثر هدوء وشرودا. كان قد أصبح مترويـــا مهموما مثل مقامر خسر كل شيء. وقد اختفت إيماءاته لي وغمزاتـــه. كـــان واضحا أنه قد آل إلى حالته التعيسة هذه بعد أن أعطاني كل ما يملكه من نقـود. ولكن لماذا علي أن أهتم بذلك. أنا أيضا ينبغي أن أعيش. وماذا عن الذل الـذي عانيته في العتمة المخيفة تحت السلالم وعلى الإسمنت البارد كالجليد؟ لقد تحولت إلى شخص مختلف منذ ذاك الحين. وأما موعد الجراحة لطالب فقد بدأ يقـترب. لقد أعلمنا الطبيب عدة مرات بأن ندفع أيضا لإدارة المستشفى ألف يوان سلفا. وإذا لا نسلم هذا المبلغ من المال فسوف يتأجل موعد العملية الجراحية. كمـا أن النفقة ستزداد كلما يطول الوقت. ذرعت جيئة وذهابا أرض الردهات الطويلـة للمستشفى والمتصلة ببعضها البعض وأنا غارقة في تداعيات متشـــابكة. كـــان العالم المتدثر بالثلوج غارقا في الصمت خارج النـــافذة. وشـــجيرات الســـرو،

والمباني المطلية باللون الأصفر تلوح للبصر خافتة في الضباب الرمـــادي اللـــون. يتدفق الدخان الكثيف من المداخن الشامخة في السماء وينتشر في المحيط. الفتيات المرتديات أحذية حمراء ومعاطف من فرو يسرن في طريق ضيق أمام المبـــنى، ثم، بلمحة بصر، يختفين في الضباب. وكذلك أسير في تلك الردهة الضيقة. وعينـاي ترنوان إلى رجال يمرون بجانبي، يعتنون بمرضاهم في داخل الغرف. وفي عقلـــي تسبح صور لعشرات الرجال. إن الرغبة في الحصول على النقود التي في جيوبهم، جيبا وراء جيب، كانت تجعلني أتوتر من الحماس. وبعد التجوال مثل مجنونـــة، وجدت أخيرا رجلا طويل القامة، أحول العين، يعمـــل مســـتخدما في هـــذه المستشفى وكان الآن في عطلة. رافقته إلى أحد المباني السكنية في الجهة الخلفيـــة للمستشفى. وحينما وصلنا أمام مدخل المبنى سألته مضطربة:

ـــ هل لك زوجة؟

أجاب الرجل بابتسامته البشعة:

ـــ أجل، ولكنها مسافرة إلى البلد. لا تخافي!

كان البيت مزينا بأثاث فخم نوعا ما. في البداية، لف الرجل سيجارة مـــن الحشيش وسحب منها عدة مرات بقوة، ثم قال بعدما مص لسانه:

ـــ كم تطلبين؟ لا يخفى أنك امرأة جميلة. كما أنك تبدين ممتعة.

قلت على الفور دون أن أفكر:

ـــ تعطيني خمسمائة يوان.

تجهم وجهه. كما اهتز الشحم تحت ذقنه.

ـــ تتكلمين كما لو أنك فتاة عذراء، فلو كنت كذلك لدفعت لك نقودا بلا حساب. ما دمت امرأة جربت الكثير فاحكي ضمن المستوى. مائة يوان كثـــيرة عليك، لكن لا بأس إذا جعلتني راضيا منك.

بعدما أنهى كلامه ألقى بالنقود أمامي.

في بلدي، عندما صادف وذهبت إلى سوق الماشية، لقد شـــاهدت الباعـــة

يساومون مع المشترين بأسعار الخيل، الحمار، البقر، أو الغنم، حيث يدور نقاش حام كما هو الآن. لكن، ها أنا في هذه اللحظة أستخدم وسيلة قذرة شـــبيهة بتلك. ترى، بماذا أختلف عن تلك البهائم؟ إن هذا الرجل، الذي تفـــوح مـــن أنفاسه رائحة الحشيش، بدأ يروي رغباته بكل توحش. وقبيل منتصف الليـــل، تسللت من حضنه بهدوء، وأخذت أفتش في جيوب ســـترته الملقـــاة بجـــانب السرير. كان الرجل ينام كالميت ما عدا شخيره. خرجت بيدي حفنة نقـــود. غادرت البيت على رؤوس الأصابع. لقد أصبح المبلغ المطلوب للعملية الجراحيـــة جاهزا أخيرا. أما طالب فلم يكن له علم بشيء.

-٤-

قال الطبيب المسؤول قبل موعد العملية الجراحية لطالب:

ـــ لقد تآكلت عظام الركبة، لذا يجب بتر الساق. وإذا ترفضان ذلك يمكـــن فقط أن نيبس العظم من خلال الأدوية. بهذه الطريقة ينجو المريض من عـــذاب فقدان رجله. ولكنه لن يستطيع من جديد أن يلوي رجله.

توسل طالب دامع العينين:

ـــ أرجوك يا طبيب، لا تبتر لي ساقي، لا أبدا. لا أريد أن أفقـــد إحـــدى رجلي.

أجاب الطبيب، وهو يشد قبضته مادا سبابته إلى الأمام:

ـــ إذن، يجب عليك التقيد قطعا بالشرط التالي، وإلا ستقضي باقي حيـــاتك بعذاب..

ـــ سأفعل، سأفعل.

ارتعش صوت طالب كما لو يبكي.

ـــ نحن سننظف عظم ركبتك من التقيحات، ثم نيبس ساقك بمواد كيميائية. وإذا تتعاطى الكحول من جديد فسوف تعود الحالة نفسها إلى ركبتك. عندئـــذ

ستخسر رجلك لا محالة. لهذا السبب عليك أن تعدنا بـــالتخلي نهائيـــا عـــن الكحول أو توافق على بتر ساقك!

قلت محاولة مني لمواساة طالب:

ـــ أنا سأتكفل عدم تعاطيه الكحول يا دكتور. سوف لن يشـــرب خمـــرا طالب أبدا بعد الآن. سيتوب عن ذنبه.

ـــ حسنا إذا..

اتجه الطبيب نحو الباب.

بعدما اختفى الطبيب، قال عباس منوها:

ـــ عليكم الآن أن تعطوه رشوة. أنا أيضا قبل أن تجرى العمليـــة الجراحيـــة لأخي دعوت أربعة أطباء إلى حفلة فخمة في المطعم، كما قدمت إليهم نقـــودا بمثابة رشوة.

ارتمى طالب على السرير مستديرا بوجهه نحو الحائط. فقد أصابه هذا الواقـــع المرير في الصميم. أما عباس فغمزني بعينه مبتسما في هذه اللحظة التي يتشـــابك فيها العوز والألم والقلق. وقد لاح في نظراته تعطش جارف. أحسست برعشـــة تجتاح كياني. فجأة احتل قلبي خوف لا أعرف كنهه. نداء خفي ينذرني مـــن داخلي بأن مصيبة وشيكة ستدمر حياتي إلى النهاية. من أنا؟ لماذا أتمـــدد تحـــت رجال غرباء؟ أسئلة تحوم حول رأسي كالخفافيش. إنما كنت عاجزة جدا أمـــام القدر. أومأ لي عباس مغادرا الغرفة. لكن الأوان لم يحن بعد. فقط حينما تغـرب الشمس ويعم السكون في كل مكان من المستشفى يمكن الهبوط تحـــت تلـــك السلالم. تركت نفسي تنشغل بأخيلة متشابكة لا مخرج لها. والصمت، والرائحة الكريهة للأدوية، والثلوج التي تهطل بغزارة في الخارج كانت أشياء أكثر تكـرارا وأقل أهمية بالنسبة لي. كان المرضى المصابون بكسر في يدهـــم أو في ســـاقهم متمددين في الغرفة مثل أموات يلفهم الكفن. إن هيئتهم الصامتة هذه كـــانت لا تطيقها روحي. حيطان متسخة، شباك العنكبوت.. كنت أود أن يمر الوقـــت

بأقصى سرعة. تعبت عينلي وأنا أترقب هبوط الليل من النافذة. ورويدا رويـــدا تقدم الظلام باتجاه النافذة.

ـــ آلتونغول، يا روحي، إني أتلهف للقياك.

ـــ كفاك تصرفا مضحكا!

انتزعت يديه عني. وأردفت:

ـــ لقد غادرت الغرفة بصعوبة وأنا خائفة من زوجي. أعطيني النقود قبـــل أن تلمسني.

فأجاب عباس محتدا من داخل العتمة:

ـــ ولماذا أعطيك أيضا؟ أخذت كفايتك من المرة السابقة، عليك الانصيـــاع لرغبتي الآن.

أنا أيضا أجبته بغضب:

ـــ سوف أعود إلى الغرفة إذا. فليس الأمر مجانا هكذا ، كما أني أقوم بأشياء منحطة كهذه إنقاذا لزوجي. وإلا لما تبعت رجلا مثلك إلى تحت هذه السلالم!

ـــ آلتونغول، يا قمري!..

كنت متأكدة من أن هذه السلالم المظلمة وهذه الأرض الإسمنتيـــة البـــاردة والقاسية لن تترك في قلبي اليوم إلا الجرح والندم. فكرت بذلك فانتزعت نفسي من قبضة عباس، واتجهت صعودا مشعثة الشعر. كان نهداي يهتزان تحت كـوتي مفتوحة الأزرار من الأمام. أسير في العتمة وأنا أصطدم يمنة ويسرة باتجاه ضـــوء ينسكب بخط مائل.

ـــ آلتونغول، آلتونغول!..

تلاشى صوت عباس في تلك العتمة التي يلفها السكون. إنه لم يركض ورائي كما أنه لم يعرضني أمام الملأ ممطرا إياي بالشتائم. أحسست فجـــأة، ولا أدري لماذا، بالكراهية إزاء نفسي. كنت في هذه اللحظة مثل عاهرة لا يعنيها شـيء إلا النقود. وقد اختفت من قلبي التراهة والعاطفة الجامحة. أتتني رغبة على حين غـرة

في أن أعود أدراجي تحت السلالم، وأعانق عباسا بكل جوارحي. عندئذ لكان عباس سيغفر لي القسوة التي عاملته بها. وكان يمكن أن يقدم لي أشياء أخرى كثيرة. استدرت ورائي تحت تأثير قوة غامضة. ففي تلك اللحظة أمسكت بذراعي قبضة قوية، وأدارت جسدي نحوه.

ـــ سيدتي آلتونغول، لم أكن أتوقع أنني سألاقيك مرة أخرى! منذ عدة أيام وأنا أفتش عنك في المستشفى. وقد جمعنا الله أخيرا في هذا المكان.

لقد كان ذاك المستخدم الطويل القامة. بدأ العرق ينسكب من جبيني. وجسدي كله يرتجف بشدة. وكذلك جحظت عيناي من شدة الارتباك.

ـــ اتبعيني!

جاء صوت المستخدم غليظا للغاية. مشيت خلفه صامتة. إنما الخوف والندم معا قد اكتنفاني. لم يكن باستطاعتي تكهن المصير الذي ينتظرني. أما طالب فكان يخال إلي أنه يسير معي باكيا بجانبي. وضعني المستخدم في سيارة، ثم عبر شوارع ضيقة ومظلمة أخذني إلى أحد البيوت العتيقة. كان البيت مليئا بدخان السجائر ورائحة الكحول. وحول طاولة واطئة كان يجلس أربعة رجال رافعين بأيديهم كؤوس الخمر. حالما رأوني لحس الجميع شفتهم بلسانهم. وبرقت عيونهم بالشهوة. كان واضحا أنني الآن أواجه واقعا لا رحمة فيه بين أن أبقى على قيد الحياة أو أن أودع الحياة دفعة واحدة. بقيت برهة من الزمن فاقدة الإحساس بنفسي. بدأ يلتهب وجهي وصدغاي كأنما يشتعلان. وكذلك دماغي شرع يتألم كما لو أنه سينفجر حالا. أما المستخدم فكان يلتهم قطعة لحم وكأنه قام بمعجزة عندما أحضرني إلى هنا. ثم ما عساي أن أفعل أمامه؟

وجوه قبيحة، أفواه متراخية، عيون ذابلة من السكر.. وأنا أشاهد هذه المناظر مرت رعشة بكل جسدي.

نطق أحدهم وقد تهدل الشحم تحت ذقنه من السمنة:

ـــ يا لها من امرأة مثل القشدة! يبدو أننا سنقضي وقتا ممتعا!

ـــ اخرس يا رجل، كيف تقول عنها امرأة، أو لم تر أنها فتاة صغيرة، هـــا.. ها.. ها..

تكلم الآخر ذو الرأس الأصلع والقامة القصيرة بصوته الأجش.

ـــ إنك فتاة عذراء أليس كذلك؟ تفضلي، اشربي هذا الخمر، فقد أرســـلك الله لنا اليوم. ونحن أيضا نحب أن نستمتع بفتيات أمثالك!

ومد يده نحوي بكأس مليئة بالخمر. قلت له وأنا مرتبكة:

ـــ يبدو أنك قد سكرت. أرجو أن لا تجبرني على شيء كهذا.

فضرب بالكأس أرضا بغضب. ثم أمسك خصري بقبضتيه وألقى بي فـــوق سرير في الخلف. قهقه السكارى وخطوا باتجاه السرير واحـــدا تلـــو الآخـــر كالذباب الذي يحوم حول قطعة لحم. والنظرات المتوحشة والمسعورة كـــانت تحدق بي من كل جهة.

ـــ أرجوكم لا، إنكم جميعا رجال بمثابة والدي، لا تذنبوا أمام الله، أنا امـــرأة مسكينة، زوجي مريض جدا، أرجوكم أشفقوا علي!

لم يعيروا لنواحي وتوسلاتي آذانا صاغية. كل المقاومة المستميتة التي أبديتـــها، وأنا أخدش، أجرح، أركل، وأعض بغضب، لم تجد نفعـــا. كـــانت الأكـــف الخشنة تداعب نهدي وردفي بسماجة.

أطلقت فجأة صرخة مدوية قائلة بغضب:

ـــ يا بهائم! ألا تخافون الله؟ تفو يا سفلة، خير لكم أن تضـــاجعوا الحمـــارة بدلا من أن تهينوني هكذا. سيلقى القبض عليكم إن عاجلا أو آجلا. ســـوف أنتقم منكم ما دمت حية!

ضغط المستخدم بأظافره على عنقي قائلا:

ـــ اخرسي يا كلبة! إذا عرف أحد ما جرى الآن فســـوف ألقـــي بـــك في السجن. وهل هي قليلة برأيك النقود التي سرقتها من بيتي. وما لك تحتجين قبل أن أحاسبك أنا! ستستقبلين اليوم أصدقائي بكل طاعة!

استولى علي اليأس. وأخذ نظري يعتم. في هذه اللحظات رجوت الله متوسلة إليه. دموعي بللت السرير. ولكن أحدا لم يكن باستطاعته إنقاذي. فلقـــد دام الإذلال الوحشي حتى ساعة متأخرة من الليل. فيما بعد، لم أســتطع التحمــل أبدا. كما أن صرخاتي، وأهاتي بدأت تهدأ شيئا فشيئا. ولا أتذكر كيف غبــت عن الوعي.

ـــ سيدة آلتونغول!

استفقت مذعورة. كان شخص يغسل وجهه أمام الباب الجانبي المفتوح ينظر نحوي بنظرة تساؤل. فارتبكت قائلة:

ـــ هوي.. هذا أنت؟ صمد؟ ماذا تفعل هنا؟ متى أتيت من القرية؟

قال صمد وهو يسمح وجهه بالمنشفة:

ـــ عشرين يوما تقريبا. أعمل حاليا لدى صاحب هذا البيت. نبيع كبابا.

صمت متروية على نفسي كما لو اندلق على رأسي دلو ماء متجلد. إن هــذا الفتى الذي يناهز العشرين من عمره كان أحد الصعــاليك ذوي الســمعة في قريتنا. وأظن أنه قد جاء هاربا إلى أورومتشي وقد عصى أوامر والديه. كــانت عيناه الشيطانيتان تحت حاجبين كثيفين ترسلان نحوي نظرات شك. غــادرت المكان وأنا أجر ببطء جسدي المتثاقل المنهك كما لو تهشــم تحــت ضربــات مطرقة..

-٥-

أدخل الأطباء طالبا إلى غرفة العمليات. كان الوجوم يلــوح في وجوهــهم. كما أن نبرة صوتهم كانت فجة. وهل هذا لأنني لم أستطع ضيافتهم في أحــد المطاعم؟ اندفعت ملقية بنفسي على باب غرفة العمليات. كان الباب موصــدا. ألصقت وجهي بزجاج الباب. لكن ستارا كان يحجب النظر بحيث لم أســتطع رؤية ما في الداخل. خيل لي أمام عيني ليس طالبا الذي يتمــدد علــى ســرير

العمليات وهو يصرخ متألما تحت السكين، ويندم على كل شيء، ويمطر بوابل من الشتائم حتى على الأطباء الذين يحاولون إنقاذ روحه من الهلاك، وإنما طلب الذي يرفع المعول عاليا ليحرث أرض الحقول التي أصبحت بنية اللون تحت حرارة الشمس، والذي يسقي نباتات الحنطة الخضراء رافعا صوته بالغناء، والذي يقبل في الدرب الريفي الضيق وهو يجر عربة تتكوم عليها أغصان الذرة الصفراء المشرئبة عاليا نحو السماء. لكم كانت تلك الفترات هادئة، ورائعة، وعصية على النسيان. ولكم اشتقت إلى بلدي، العزيز على قلبي، ذي السماء الصافية، والهواء المنعش، والذي يهب من حدائقه ذلك النسيم المفعم برائحة الثمار التي بدأت تنضج. آه يا بلدي، لو أتمرغ بترابك مرة أخرى لتطهر فؤادي من كل حسرة. إنما كم أشعر بحياء لأدوس ترابك الطاهر وأنا أحمل هذا القلب المدنس! عندما استفقت من تداعياتي رأيت نفسي واقفة في الردهة الضيقة التي تفوح فيها رائحة الأدوية، كما رأيت طالبا يتمدد على نقالة، ووجهه شاحب كما الحائط، وإحدى ساقيه ملفوفة كليا بالشاش الأبيض. فقد مرت خمس ساعات تقريبا بسرعة البرق. رافقني الأطباء حتى وضعت طالبا على سريره ثم غادروا الغرفة. كان طالب غائبا عن الوعي. وعلى وجنتيه آثار دمع.

طلبت من عباس قلما وورقة. كنت مقتنعة بأن أية إمكانية في كسب مال في هذه المدينة الآن غير واردة. لم أكن أود التزول تحت تلك السلالم من جديد، وأن أتمدد فوق الأرض الإسمنتية الباردة. وإن السند الوحيد والمنقذ الوحيد بالنسبة لي في هذه اللحظات كان هو العمدة رحمان فحسب. هذا الرجل فقط يمكنه تلبية حاجتي، إذا توسلت إليه، وطلبت منه الصفح تائبة عما قمت به في ما مضى من تصرفات مهينة إزاءه. شرعت في كتابة رسالة له وعيناي تذرفان الدموع. وقد جاء في الرسالة ذكر بعض الكلمات التي كنت أشعر في ما مضى بالكره إزاءها والتي أشمئز منها حتى. أما طالب فلم يكن يلاحظ شيئا متمددا بصمت وكأنه مثبت على السرير بالمسامير.

عندما ذابت الثلوج وغمر الوحل شوارع المدينة، استلمت أخيرا الحوالة التي لطالما انتظرتها من العمدة رحمان. ففي هذه اللحظات كنت مستعدة للقيام بأي شيء يأمرني به العمدة رحمان. وحتى لو قضيت بقية حياتي كخليلة لديه أنفذ له رغباته وأمانيه لكان ذلك غير كاف للتعبير عن عرفاني بالجميل له. لأن البقاء بلا نقود في هذه المدينة الغريبة كان بمثابة فقدان الحياة أي الموت. فجأة أحسست بروحي خفيفة كأنما تلاشت غيوم الكآبة من سماء قلبي. كما أحسست بأن المصائب والعار الذي قدر علي أن أعيشه قد أزاحته من حياتي هذه الحفنة من النقود التي بين يدي الآن. ولكني كنت متأكدة من أن هذه الجروح سوف لن تندمل ما حييت، وأن حياتي ستتآكل أبدا بسبب هذه الجروح. وكان أكثر وضوحا لي أن حفنة النقود هذه ستفتح أيضا أمام حياتي مزيدا من الأبواب للقهر والعذاب. بقيت طويلا وأنا مغمضة العينين. في مخيلتي يطفو وجه عباس، والمستخدم الهرم، والعمدة رحمان. بالنسبة لي كانوا جميعا منقذين. لكنهم كانوا كلهم مخلوقات طافحة برغبة متوحشة. لماذا ارتبط مصيري بهم؟ ولماذا اضطررت لأن أضحي بنفسي كي أسد جوعي، وكي أداوي مرض زوجي؟ كانت هذه تساؤلات لا أجرؤ على أن أبحث لها عن الجواب. وفي كل مرة أحاول التفكير فيها كنت أحس بأن مشنقة تتدلى عند رأسي.

مرت الأيام بسرعة. وغادر عباس المستشفى يرافق أخاه. أما تلك السلالم المعتمة فقد غدت الآن مهجورة. وغابت إلى غير رجعة تلك الحشرجات المكتومة والمضطربة، التي كانت تنبعث من هناك. وقد ودعت للمرة الأخيرة ذلك المكان الذي ترك في حياتي وفي قلبي آثارا لن تزول ما حييت. بللت دموعي إسمنت السلالم. لا يمكن بعد الآن أن تشرق الشمس، أيضا، من هذا المكان.

أنهيت كل المعاملات لمغادرة المستشفى. نهض طالب مسندا عكازين تحت

إبطه. كان جسده يتمايل كقصبة نمت في أرض رطبة. وعلى وجهه النحيل وفي عينيه الغائرتين كانت تزهو ابتسامة خفيفة. تركنا وراءنا الغرفة المليئة برائحة الأدوية، والردهة الطويلة المتصلة ببعضها البعض. ولقد تلاشى الضباب الرمادي اللون، والشمس الدائرية الشكل كانت تسكب أنوارها بهدوء فوق الجبال الجرداء المشرئبة في جهة الشرق. وكانت أشجار السرو، التي انزوت تحت الثلوج طوال الشتاء، قد اخضرت. وقطعان من السحب كانت تسوح في أعالي السماء. كان كل مكان مفعما بالضوء وبالنسيم العليل، ومن كل مكان كان ينبثق برعم جديد.

-٦-

بدأ من جديد حفيف أوراق الحور حول بيتنا. كانت رائحة أزهار البلح المسكرة منتشرة في المحيط. أصبح في دكاننا المتواضع الذي بني ملاصقا للبوابة لا ينطفئ مصباحه حتى منتصف الليل. وكان طالب يبيع فيه أشياء كأعواد الثقاب، والملح، والسكاكر، وهو يتأمل النجوم المتلألئة في فضاء شاسع لتلك السماء. كانت حياته تنقضي في تلك المسافة التي لا تتجاوز بضعة أمتار بين الدكان والبيت. أما أنا فكنت أذهب إلى الحقول في النهار. كان علي الآن أن أعتني بطالب طوال حياتي، وأن أتولى أعباء البيت والحقل كلها. وماذا يمكن أن ينتظر من رجل يمضي حياته بصعوبة متكئا على عكازين؟

ـــ سيدتي آلتونغول!

انتابني الذعر من هذا الصوت الذي لم يكن غريبا عن مسامعي. كان يقف أمامي عمدة القرية رحمان كما لو انبثق من تحت الأرض. كنت حينذاك منهمكة بوضع تراب حول جذوع نباتات الذرة الصفراء. كان الطقس حارا كما التنور، وجبيني يتصبب عرقا. وكان الجوار هادئا للغاية، ما عدا نهيق حمار في البعيد. جلست أرضا على الفور مطأطئة الرأس ومحمرة الوجه من الخجل، ثم

تطلعت إلى عينيه بنظرة استسلام. فانخفض هو أيضا بين نباتات الذرة الصفراء.

ـــ شكرا لك يا عمدة رحمان!

تفوهت وأنا أرتعش. ثم أكملت بقية الحديث:

ـــ لولاك لكان وضعنا صعبا للغاية. فلن أنسى لك معروفك طوال حياتي.

قال، وهو يفك أزرار قميصي ويداعب نهدي براحة يده الخشنة:

ـــ لكن، هربت مني عندما كنت لا تزالين جميلة. وهددتني ملوحة بـــالمنجل. وإلا كنت مرغتك بالوحل تحت قدمي، واحمدي ربك الآن أنك استلقيت تحـــتي بمحض إرادتك، ولم تدركي بعد أنها كانت خسارة حين تزوجت من طـــالب.. ذاك المعتوه.

كانت الشمس المعلقة في السماء تتوهج فوق رأسي مثل جمرة. ثيابي كلـــها تلطخت بالوحل. وشعري أصبح مشعثا. وقد تكسرت نباتات الـــذرة في أرض مساحتها بحجم الحصير، والتصقت بالطين. غادر العمدة بمحاذاة الحافة بعـــد أن راقب بنظراته الجوار. بقيت جالسة لوحدي وأنا أعانق ركبتي. وكان قلبي هادئا وكأنه صامت لهذا القهر. وحتى أهدابي، التي كانت سرعان ما تتبلل بـــالدموع، ظلت اليوم كما هي. وهل هناك من فرق بين تلك السلالم المعتمة وهذه الحقول المليئة بالذرة الصفراء؟ ظللت أفكر، ثم أفكر، حتى بدأت أنعس مرتمية برأســـي على الحافة. وإنما لم يغمض لي جفن. وكأن حقول الذرة قد تحولـــت نيرانـــا مشتعلة وتلتهم جسدي. بدأ الخوف والضياع يجتاحان حياتي مـــن جديـــد. لم يكن باستطاعتي التكهن بما يتبع بقية حياتي من مصير. فحقيقـــة أني أصبحـــت خليلة للعمدة رحمان كانت حقيقة مريرة لن تتغير مدى الحياة. وإن أصبحـــت لا أعاني الجوع فليس بمقدوري إلا أن أستسلم لأهوائه.

بدأ طالب يبيع خمرا في الدكان آخذا برأي أولئك السكيرين في الحـــارة. ولم أستطع منعه من تنفيذ هذه الفكرة مهما توسلت إليه. وفي الأخير، سكت عـــن الأمر قائلة في نفسي ليكن ما دام هو ذاته لا يشرب الخمر. كان يبيـــع الخمـــر

بشكل أسرع مما يبيع باقي السلع، كما أن الربح الذي يجنيه منه لا بأس به. لكن، كان هناك أيضا من أبدوا غضبهم لبيع الخمر، وحتى من هددوا بإضرام النار في الدكان. شعرت بالعار. إن الأصوات الصاخبة لمجموعة من السكيرين غدت لا تبرح أسوار البيت. وقد اعتدت على رؤيتهم وهم يقيئون في الطريق، ويتشاجرون مع بعضهم. وفي كل مرة يحمى الوطيس في الخارج، كان طالب يقفل الدكان هاربا إلى البيت وهو يعرج بعكازيه، ثم لا يستطيع إخفاء ضحكته قائلا بفخر "لقد ضحكت اليوم على السكيرين وبعت لهم الخمر بأسعار باهظة". أنا أيضا لم أكن أعرف كم بدأ يجني من مال مؤخرا. وأحيانا كنت أشعر فجأة بالكراهية الشديدة إزاءه وأتمنى أن يبقى هكذا أعرج مدى الحياة. ملل أروع لو يبقى هو يبيع الخمر في دكانه الصغير وأنا أعيش أجمل مشاعري حيث تمتزج بحفيف أوراق الحور، ثم تتلاشى في هذه الحديقة. ولكني كنت أخاف الله. وكنت أدرك أن الله لن يغفر لي مهما كان. إن آثامي لا يمكن لمياه نهر بكاملها أن تطهرني منها. آه، لماذا من جديد سأتمدد تحت رجل غريب وأنا أخاف الله؟ لماذا؟ ترى، لماذا؟ وأية قوة غامضة، يا ترى، تلك التي تجذبني نحو حضن رجل غريب؟

وأنا مستلقية أحدق بالسقف غرقت في تفكير لا قاع له. أما طالب فينام بقربي كالميت. ضوء القمر يحاول أن يخترق النافذة المتسخة لينير الفضاء الضيق للغرفة. إن هذا البيت والكون كله غارق في الصمت كما المقبرة متحدا بي. ويجثم هناك على قلبي اضطراب، وقهر، وسأم.

فجأة، طرقت البوابة بعنف. ثم جاء صوت شخص يصيح. كان طالب ينام كالميت. ولم أستطع إيقاظه مهما حاولت. في حين أنه كان مستحيلا ألا يستيقظ.

ـ طالب، طالب.. افتح البوابة.. الخمر.. أعطيني خمرا! طالب، انهض يا منحط. وإلا فهات امرأتك، دعني أضاجعها أنا أيضا كما الآخرون!.. طالب..

فاجتاحت الرعشة كياني. وحدقت عيناي كعيني قاتل. انتفض طالب مزيحا عنه الغطاء، واتجه زاحفا نحو الباب. كان جسده يتحرك في الظلام كشبح يتهادى على الأرض.

ـــ طالب.. طالب.. إذا لا تريد أن تعطيني خمرا فهات امرأتك..

كان الصوت الذي يأتي من الخارج قويا حينا وخافتا حينا آخر، ولكنه كان عصبيا للغاية. جرحتني الإهانة في الصميم. فسرعان ما ارتديت ملابسي فتبعت طالبا إلى الخارج. كان الليل مقمرا. ارتفع صوت قرقعة البوابة، وتبع ذلك صوت ارتطام حيث هوت على أرض الفناء كتلة ضخمة. كان قد سقط ذاك الشخص فوق البوابة المنقلبة أرضا.

ـــ صمد!.. يا سافل.. ماذا تريد من تحطيم بوابتي؟ تعال، انهض إذا تظن نفسك رجلا!

انقض طالب فوق صمد الذي كان يتمدد على الأرض خائر القوى كثور سقط بضربة سكين. لم أر طالبا تملكه غضب شديد كما هو اليوم.

ـــ وهل تشتم زوجتي أيضا؟ هيا، قل لي.. من كان يضاجع امرأتي؟

أمسكت يده قائلة:

ـــ اتركه، دعك من هذا السكير، لا تنس ساقك!

ـــ إليك عني!

دفع طالب صدري بقوة. فلم أتمالك نفسي فسقطت قرب حجر الرحى الذي كان ورائي. فلو اصطدم رأسي بذاك الحجر لودعت الحياة، عذابها وقهرها دفعة واحدة. وكان العار كله والرذائل كلها لاختفت معي بكل صمت. وإنما لم يحدث ما تمنيت. كان البكاء يجثم على قلبي. وكنت متأكدة من أن أكثر اللحظات رعبا في حياتي كانت تدنو مني كعزرائيل.

ـــ صمد، أيها الحيوان القذر، هيا انهض، سأصفي حساب معك!

كانت أوراق الحور تصدر حفيفا يكاد لا يسمع. ومن بعيد، كان يتناهى إلى

السمع نباح مضطرب للكلاب. نهض صمد من مكانه ببطء وهو يئن من الألم، ثم انقض على طالب ضاغطا بيديه على عنقه.

ـــ أتقول إني حيوان، يا ديوث، اسأل زوجتك العاهرة تلك. هي ستخبرك من هؤلاء الذين كانوا يضاجعونها!

ـــ اخرس يا صمد!

صرخت به.

انتشرت صرختي في فضاء الليل. أحسست بأن رئتي لا يسعهما صدري، وقد تسارعت أنفاسي. كان طالب ينخر مختنقا. وأما صمد فكان يشد بيديه على عنق طالب ويضرب برأسه على الحائط بعنف.

ـــ ماذا أنت فاعل به؟

اندفعت نحو صمد. ضرب طالبا بقبضاته ثم دفعه بكل قواه. تقهقر طالب وراءه حتى سقط فوق البوابة المحطمة.

ـــ تركتموني بلا خمر، سوف أحرق الدكان يوما لا محالة!

خطا صمد خارجا وهو يترنح. تسمرت في مكاني كالميتة مسندة ظهر إلى الحائط. ولج القمر في دوامة غيوم تجتاح قدما وغاب. نشر الظلام جناحيه فوق فناء البيت حيث احتله جو من الرهبة. كان طالب يتمدد وكأنه مسمر على الأرض. سقطت دمعتان على خدي. كنت لا أعرف كيف أقترب منه وماذا أقول، كان دماغي يطن كخلية نحل.

ـــ أيتها الكلبة القذرة، لقد كذبت علي..

توحش طالب فجأة، وهو ينهض عن الأرض بصعوبة، ثم فقد توازنه فسقط على الأرض من جديد. الآن، لم تكن لدي أية رغبة بأن أسنده، وأن أضع العكازين تحت إبطه. كان هناك إحساس بشؤم ينشر ظله على قلبي. ولكن كياني كان خاليا من أي إحساس بالخوف. جر طالب جسده نحوي وهو يغرز أظافره في الأرض، ثم نهض مستندا على ذراعيه. عندئذ أمسك شعري وشدني

نحوه. سقطت أمامه كما لو أني حمامة مربوطة الجناحين.

ـــ قولي يا كلبة، ماذا اقترفت من رذائل؟

ومع اللكمات المفاجئة سقطت من جديد على ظهري. كنت أحس بألم شديد في كل مكان من وجهي. جلس طالب ضاغطا بركبته على بطني، وصفعني أيضا عدة صفعات. ثم أمسك عنقي بكلتا يديه غارزا فيه أظافره. بدأ الدم يتدفق من أنفي. كما أن نهدي ويدي تلطخت بالدماء. لم أتمالك نفسي من شدة الغضب. أخذ صدري يشد على رئتي واندفع من أعماقي بكاء يستحيل إيقافه. بالنسبة لي كان كل شيء في هذه اللحظات قد بلغ هلاكه. وحدها رهبة الموت كانت تلوح في ذهني. قاومته بما أوتيت من قوة حتى انتزعت يديه اللتين كانتا تضغطان على عنقي.

ـــ قولي لي يا كلبة! وإلا قتلتك.

سقطت ملتصقة بالأرض متهالكة تحت نداءات مثقلة بالإهانة والتهديد، وكذلك اللكمات، والركلات. فلقد بدا لي الآن قسوة القدر والوجه الحقيقي للبشر. إن تلك السلالم المعتمة، والغرفة المليئة بدخان السجائر، والحقل المزروع بنباتات الذرة، كانت تهاجمني بشكل مخيف وتحطم حياتي بجنون. والذكريات الأليمة احتلت قلبي مرة أخرى. والآن، لم أرغب بأن أشرح لطالب كل شيء. إن امرأة مثلي باعت جسدها لتنقذ زوجها ما عساها أن تقول، يا ترى، بكل صدق؟

ركلت طالبا في ساقه المريضة بكل عنف. فسقط جانبا وهو يصيح كالخنزير. كان الليل غارقا في الصمت. رنوت بنظراتي نحو السماء. كانت النجوم ترسل أضواءها الخافتة بحياد. لقد تلطخت حياتي بكل مدنس وعار، فاغفر لي آثامي، وأنقذني من الموت، فإني عبدتك المسكينة، ليس باستطاعتي أن أتحمل أيضا مزيدا من الإذلال، والقهر، وإيذائي بلا رحمة. وحدك تقدر على إنقاذي من هذا العذاب الذي لا حدود له، وحدك تستطيع أن تمنحني الحياة والإرادة،

فأنت الإله الوحيد أبدا والمقدس في قلبي، آه، يا خالقي!..

تمتمت بصمت وأنا أتوجه بالرجاء إلى الله. كان الليل يلفه السكون، وقطيع الغيوم يسرح في السماء. وكانت النجوم ترسل أضواءها الحزينة. أخذ يشتد حفيف أوراق الحور. وأما هذه البرية الأم، المفعمة برائحة العشب والنباتات الجديدة فكانت غارقة في النوم وكأنها لا تريد أن تعرف المصائر المريرة، التي تثقل بها حياتي.

فرهاد إلياس

انسلاخ

لم تمض بضعة سنين منذ زواجي حتى ضقت ذرعا من العائلة. الاعتناء الولـــد يوميا، وإحضار ما يسد الرمق من الخبز والخضار، والشجار مع الزوجة لأمـــور تافهة... هل هذا هو الحب، هل هذا هو ما حصلت عليه بعد كل هذه اللهفـــة للحب؟ بعبارة أخرى، فقد غدت العائلة بالنسبة لي جلدي الذي ألبسه، ولا بـد لي، كما الأفعى، أن أنسلخ منه لأبدأ حياة جديدة متحدا بالربيع. أخيرا، اتخذت في نفسي قرارا بالرحيل ضاربا في الأرض متخليا عن زوجتي وابني.

"لم أستطع إسعادك"، قلت في داخلي. ولم أجر أبدا على النظر إليها كما لـــو أنني مذنب.

ـــ حسنا، إذا العائلة لم تمنح قلبك السعادة...

قالت زوجتي وقد اغرورقت عيناها بالدموع.

ـــ اصفح عن أبيك المجنون، ـــ تفوهت وأنا أقبل للمرة الأخيرة معانقا ابـــني، الذي بالكاد أصبح يستطيع التلفظ بالكلمات. هل أدرك شيئا أم لمح الدمـوع في عيني أمه، فقد بكى هو الآخر. شعرت بأني سأبكي أيضا إن بقيت لحظة أطول، وسوف أتراجع عن قراري، الذي قطعته على نفسي. فسرعان ما غادرت البيت دون أن ألتفت إلى الوراء.

وإن يكن قد أحسست بالنار تحرق قلبي، فإني فزت بمبتغاي. خرجت مـــن البيت ومن ثم صعدت مباشرة أحد التلال وألقيت نظرة على منزلي، الذي بنيتـه وأنا أكدح طوال تلك السنين، وكأني تمنيت أن أنعم برؤيته للمرة الأخيرة. كان

يرتمي بين الأشجار بمزيد من البياض كجلد الأفعى. هكذا، فهو يبقى، أنا أرحل. إنه، طوال هذه السنين، قد منحني دفئاً، كان لي رحماً. والآن لقد ولدت. فلا بد من الانسلاخ من الرحم العزيز للأم لكي نولد. حسناً، فليعلتبني البشر كما يشاؤون، فلن أتخلى عن مبتغاي حتى أبلغه. لا يمكن اعتباره إنساناً من يأتي إلى هذا العالم ولا يستطيع بلوغ هدفه.

بهذه التداعيات انحدرت سريعاً من الجهة الأخرى للتل. بدا لي، إن لم أبتعد على وجه السرعة، كما لو أن مترلي يستطيع اللحاق بي في الحال.

ولقد مضيت بهذه الطريقة شهوراً. قطعت سهولاً عديدة، جبالاً عديدة. وشاهدت العديد من غرائب الأمور والمآسي. أكلت وشربت ما اشتهت نفسي، وفعلت ما أشاء. واجهت الغرباء والمساكين بالخير والإحسان. ولم أبخل على أحد بما يحتاج إليه من مساعدة. وكذلك عاشرت حسناوات متكبرات عندما سنحت الفرصة لذلك. فقد أُعجبت غاية الإعجاب بما أقوم به من أعمال مقتنعاً بأن على الإنسان أن يعيش هكذا أصلاً. كذلك أُنعمت بصداقة أناس كثيرين من جراء شهامتي، شجاعتي، ومرحي. كنت أحسبني راضياً إذا ما متّ بعد أن أعيش بهذا الشكل عشر سنين أخرى. لكن، وبعد انقضاء أربع أو خمس سنوات، ضقت ذرعاً من الترحال أيضاً.

وما فائدة أن يعيش الإنسان إن لم يكن لديه لا عقيدة ولا غاية؟

منذ ذلك اليوم، الذي فكّرت فيه بهذه الأشياء، بدأت أحسّ بعدم جدوى الأمكنة التي تجوّلت فيها، والبشر الذين التقيت بهم، والأمور التي شاهدتها. أم لعلّني بلغت من جديد موسم الانسلاخ؟ بالفعل، لقد انسلخت أخيراً. لمّا لا يبقى في نظري أي قيمة للبشر، فلماذا أظلّ أعيش، إذن، طبقاً لمعاييرهم الأخلاقية؟ وما دمت قد انسلخت فقد قرّرت أن أتخلى نهائياً بحيث خلعت عني حتى ثيابي، ومن ثم خرجت إليهم عارياً كما ولدتني أمي. كلهم قالوا مندهشين إني "لقد جنّ، مغفرتك يا رب". تركتهم حيث هم ورحلت بعيداً. مضيت،

مضيت، حتى وصلت المكان المقدّس، الذي كان في فكري. فـــلا أحـــد هنـــا ليسبّب لي إزعاجاً، وكان لا بأس لو أتثبّت في هذا المكان كنصبٍ حجـــريّ إلى الأبد حيث أظلّ جالساً.

قضيت سنين عديدة وأنا جالس هناك. ثم، أخيراً، كما يشاهد الحشاشـــون الجنة بعد لأي، شاهدت أنا أيضاً عالماً آخر، عالماً كنت أنتظره، حيث يقيم الله. إن ذلك العالم، وبالرغم من أنه أكثر اتّساعاً من عالمنا هذا، كان يختبئ داخـــل كياني الصغير.

لما بلغت هذا المكان، بعد كل هذا الدأب، وبعد كل هذا الانسلاخ، لمعـــت في فجأة حقيقة أبدية. فأدركت أنه، إذا أنا اعتبرت العالم الخارجي جلدي الذي علي الانسلاخ منه، فهناك عالم آخر يعتبر جسدي جلده الذي ينبغي عليـــه أن ينسلخ منه هو الآخر.

على حين غرة، تذكرت زوجتي، التي وهبتني كل ما لديها من حب، وابـــني، والآثار التي خلفتها خطاي. وفي تلك اللحظة، أضاء كل شيء دفعـــة واحـــدة تحت بصري.

لقد أدركت، متى ما استطاع ذلك العالم، الذي يضيئه نور الله، أن يتخطـــى جسدي، هذا الذي يشبه أسوار السجن، نبلغ حينئذ ما كنا ننتظره، لست أنـــا فحسب، كلنا... البشر، الأمكنة، عائلتي، زوجتي وابني، كـــل ذلـــك الـــذي انسلخت منه.

كوراشجان عمر

مولانا

مضى زمن طويل منذ أن مات زوج العجوز. عندما كان المرحوم على قيد الحياة، كانت هي امرأة لا تزال تفيض بالجمال. والطفل، أيضا، ولد. لكن الأب والابن لم تكتب لهما رؤية أحدهما الآخر. كان بيتهم يقع في مدينة خربة، حيث يقطن البشر مزدحمين كحصى بحيرة جفت.

داخل البيت رطب، مظلم، أما العجوز، فأمام موقد عتيق يتسرب منه الدخان، تنهمك بشيء ما. جو البيت خانق يصعب فيه التنفس. هناك، في زاوية صفت فيها المفارش والأغطية بغير ترتيب، وضع مهد رديء وغليظ، يختلف قليلا عن باقي المهود الموجودة حوله. المهد ضخم إلى حد يثير الاستغراب، والبطانية الرثة، المغطى بها المهد، مهترئة بحيث عمتها الثقوب. وفي داخل المهد، رجل تجاوز سن البلوغ بلحيته الكثيفة ينام كالميت.

صوت الناي، الحزين، المتناهي إلى السمع من مكان ناء، أخذ يشتد كأنما أراد أن يهدهد هذه المدينة القديمة، التي تضطجع ممرغة بالوحل والغبار، لكي تستغرق في نوم عميق.

أخذت العجوز تشيخ بسرعة في هذه الأيام. إن سمعها لا يستجيب لأي صوت. وكأن ذراعيها وساقيها أغصان شجرة يبست حتى تشقق لحاؤها. ظهرها محني، وبصرها ضعيف. فهي تنسب مآلها إلى هذه الحالة إلى موت زوجها. لو كان المرحوم على قيد الحياة.. بدأت تبكي بصمت. لمست بيديها وجهها، صدرها، شعرها.. بحركة خفيفة. لم تستطع تلك الأجزاء من جسدها

الاحتفاظ على وضعها كما كان، حينما كان زوجها ما يزال على قيد الحيـــاة. وخاصة ذراعاها وساقاها غدت ضعيفة وقد أصابها الضمور. لم تكن كذلـك في ما مضى، كان صدرها، ساقاها ناعمتان وطريتان كالعجين قبل أن يخـــبز في التنور، وكانتا صالحتين للقيام بأي شيء، لم تكن لتحاول أن تترك أيا من أعبـاء البيت ليقوم بها زوجها، كانت تتعب مثله في أي وقت.

ذات يوم، أخذ جفنها الأيسر يرف دون انقطاع، أما زوجها فقـــد غـادر البيت ليبيع القبعات التي انتهى من خياطتها مجددا، كانا يعيشان أيامهما بشـكل مقبول اعتمادا على حياكة القبعات وبيعها في السوق. وحتى الكثير من محـترفي هذه الصنعة لم يكن بمقدورهم منافسته في الحياكة والتطريز. وعند اقتراب موعد الولادة، كانت منهمكة بتحضير ما يلزم لهذه المناسبة. شعرت فجأة بأن هنـاك مصيبة لا تدرك كنهها كانت تطل من النافذة تسترق النظر إلى داخل البيـت. وقد شعرت بأن العينين المتلصصتين ستقضيان عليها حالا، ستشقان بطنها بـلا أدنى رحمة، ثم ترحلان بجنينها. جلست على سجادة الصلاة فترة طويلة سـائلة ربها أن يحفظ زوجها وابنها في أمان.

طرق الباب فارتعشت ودق قلبها بعنف..

لم تجر الأمور كما تمنت، فقد كان القدر قاسيا للغاية معها، وحينما علمـت بأن زوجها بقي تحت حطام الحائط، تمالكت فاقدة الوعي. حالمـا تذكـرت اندفعت خارج الباب كالريح. وقد نسيت الجنين في بطنها، كمـا نسـيت أن تقفل الباب. شعرت وكأن لها جناحين، ولم تكن قدماهـا تلامسـان الأرض، كانت تجري في طريق ضيق، مظلم، طويل كالأمعاء، محاصر بعشـرات الآلاف من المنازل.

بالكاد عاد إليها وعيها بعد ثلاثة أيام بلياليها من موت زوجها. ليت هـذا لم يحدث لها، فمهما حاولت لم تستطع أن تهتدي إلى باب بيتها، يبدو أنـها قـد فقدت ذاكرتها. كان هناك في البيت أشياء للتذكار خلفها لها أبواها وزوجـها.

طافت في المدينة يقودها الدوار في رأسها والتعب في رجليها، حتى سقطت متهالكة عندما وصلت، بمشيئة القدر، إلى ذاك المكان حيث مات زوجها.

أحست بألم شديد في بطنها، هي لا تدري أن هناك أحدا ما يسترق النظر إليها من وراء نافذة أحد البيوت القريبة. السماء صافية للغاية، حيث النجوم اللامعة تحاول أن تضيء هذا الزقاق بأشعتها الخافتة. وجسدها المسود تحت حرارة الشمس ممدد وسط الطريق. وبعد منتصف الليل، تناهى إلى سمعها صوت الناي من مكان ما، ثم هبط من السماء المظلمة نور شبيه بالثعبان، وبدا يخترق بطن المرأة، يلتف حول رقبتها ثم فخذيها وساقيها، يلامس شفتيها بلسانه المتوهج. اشتد صوت الناي وغطى حتى تأوهات المرأة. وبعد فترة ليست بطويلة، اختفى ذاك الشيء الغريب. في تلك اللحظة ولد طفل يبكي بشدة. كان المولود صبيا، وجسده كله يشع كالمصباح. أضاء المحيط كما النهار، فتح الناس أبوابهم مندهشين، إنما لم يجرؤ أحدهم على الخروج إلى الطريق من الرعب. وحتى ذاك الصبي الأعرج، الذي كان يسترق النظر من وراء النافذة، لم يجد مكانا يختبئ فيه وهو مرتعب. ثم أخذ يحرك شفتيه بآيات قرآنية تأسر الجان، وقد تعلمها من جده، حتى أغمض جفنيه وغفا.

قبيل بزوغ الفجر، جاء بضعة مؤمنين وأوصلوا المرأة التي ولدت في الطريق إلى بيتها. البيت فارغ من كل شيء. وأغراض البيت هل سرقها أحد اللصوص، أم غمرها الطمي المتسرب من السقف، هذا غير معروف.

عندما أضاء النهار، حدثت في المدينة تحولات عجيبة. فوجوه الجميع، صغارا كانوا أم كبارا، تلوح فيها طمأنينة لا متناهية. فلم يكن سكان هذه المدينة قد غمرهم سرور كهذا من قبل. شفي المرضى من أمراضهم المستعصية على العلاج منذ سنين طويلة بمعجزة الرب. فلقد شاع في المدينة خبر مخاض تلك المرأة وولادة طفل مبارك مثل القديسين.

لم تستطع إنقاذ زوجها في حينها وإن حاولت ذلك بأقصى سرعة. أزاحت

حطام الحائط المنهار على الطريق وعثرت على الجثة. إن ما كانت عليه من بأس وقوة أثناء ذلك أدهش حتى الرجال الأشداء كالثيران، الذين كانوا يساعدونها في إخراج الجثة من تحت الأنقاض. ارتمت على زوجها الميت مولولة. أخذت تصفع وجهها بالكفين، ثم شدت بشعرها، ومزقت ثيابها شر تمزيق. لم يجرؤ الناس على النظر إلى هذا الجسد الجميل، الذي أصبح عاريا تماما، فرحلوا.

هبط المساء. ظل الناس يسمعون طوال الليل نواحا معذبا في مكان ما. انبلج الصبح. هناك امرأة قد انتفخت بطنها ككيس معبأ بالتبن أمضت ليلة كاملة وهي تحدق بالجثة. بضع نساء كبيرات السن طيبات القلب حاولن تهدئتها متوسلات، لكنها لم تسمع، حاولن جرها باتجاه بيتها، لكنها لم تتحرك. والجثة، متفتتة العظام، أخذت تطول شيئا فشيئا. يحوم الذباب في كل مكان. ومن حيطان عتيقة، من زوايا أزقة ضيقة، من قبب مساجد تكاد تنهار، تسمع أصوات كرفرفة جوارح ضخمة، كمواء مخيف لمخلوقات جنية تقمصت أشكال قطط.

السماء صافية للغاية، والنجوم تلمع في مكان منخفض جدا، كأنها هبطت فوق رأس امرأة تقف كعامود قرب جثة. إن فجر اليوم بزغ متأخرا كثيرا، ليس البشر وحسب، وإنما حتى الأسماك في الماء تتنفس بصعوبة بسبب الجو الخانق. وقبل أن تصعد الشمس إلى كبد السماء، غدا فضاء المدينة كله مثقلا (وكأن في كل بيت ميتا) بالصوت الشبيه بالنواح على الميت. الناس كما لو أنهم مجتمعون ينتحبون. إن هذا الصوت يئز كالنابض، ينتشر في البعيد كالإعصار. هناك في هذا البكاء تعابير كالتحسر، والخنوع، والضياع، والدعة. وفي الواقع، في هذا الوقت، في أي مكان من المدينة، ليس هناك من حادثة موت. بتعبير أدق، ذلك الصوت يمكن اختزاله في صوت الناي. البكاء.. يبدو في سماء المدينة يحوم ظل كيان ضخم، له جناحان أسودان كبيران، وله منقار صقر، مخالبه كالمذراة. هناك أعراس في عدة أماكن، والبشر الذين قد نسوا حادثة الحائط في الأمس،

يأكلون ويمرحون وكأنهم سيموتون غدا، والقدور يغلي فيها الزيت والأرز.

السوق حامية، والشوارع والأزقة مزدحمة منذ الصباح الباكر بالناس. اليوم يوم البازار. كثرة العربات التي تتدفق إلى المدينة كالطوفان، والتي يجرها حمار أو ثور، تصيب الرأس بالدوار. الذاهبون والقادمون يدهشون الإنسان بثيابهم الرثة المتسخة من جهة وبقوة رغبتهم بالحياة من جهة أخرى.

لا عد لمواش، بعضها يتكدس على العربات، وبعضها الآخر مربوط بعواميدها. سوق الذبائح تعج بالناس. هناك عدة خراف مكبلة الأرجل تتمدد في صف واحد على يسار حفرة الدم. شخص غائر العينين، يعتمر قبعة مطرزة تغمرها الوساخة، تلا آيات لأرواح الموتى رافعا يديه للدعاء، ثم أنزل السكين على أعناق الخراف واحدا تلو الآخر. وما إن تشعر الخراف بالنصل على رقبتها حتى تنتفض، ولا تبدي أية مقاومة، وكأنها اعتادت الموت على الفور. في كل مرة يهبط النصل على حنجرة خاروف، تشعر المرأة الواقفة قرب الجثة بالألم يعصر قلبها، وبضيق يكاد يقطع أنفاسها. الأوراق النقدية التي تتناقلها الأيادي تختلف عن بعضها البعض باللون وبالحجم. يحوم الذباب في كل مكان معترضا خطوات المارة، لا مطر منذ الصيف حيث انتشرت في المدينة أمراض معدية، والبشر مضطربون كمخلوقات مصابة بنوبة الصرع.

إنهم يرتدون حتى في أيام القيظ معاطف وقبعات وجزمات مصنوعة من جلد الغنم. الخضار والفواكه الموضوعة في صناديق تملأ الشوارع. سكان المدينة يتاجرون أيضا بما يصنعونه بأنفسهم من موبيليا وألبسة ومستلزمات الدواب. إن البائعين هم أكثر عددا من المشترين. يملأ صراخهم فضاء المدينة وينتشر في الجوار كما العاصفة. وحتى هذه الأصوات الصاخبة لم تكن المرأة لتسمعها. ولا اختلاجات الجنين الغريبة في بطنها تسترعي انتباهها، ولحسن الحظ، أيضا، لا يمر المتسوقون، في هذه المدينة المزدهرة، من الزقاق الذي تقف المرأة فيه. فهم يختارون الشوارع المستقيمة خوفا من الضياع في تعرجات هذا الطريق. أما

الذين يضطرون للعبور في هذا الطريق فلم يجرؤوا على ذلك، لأنهم سيدنسون إن عبروا. عندما تقف امرأة عارية في وسط الشارع منتصبة كالشبح، ليس باستطاعتهم الاقتراب البتة من هذا المكان.

هناك نافذة مظلمة ليست ببعيدة عن مكان وقوع الحادثة. ومن جهة البيت للنافذة، صبي أعرج يكاد يبلغ سن الرشد حيث ارتسم شارب خفيف أعلى شفتيه يتطلع بين حين وآخر نحو مكان وقوع الحادثة. إذ يطلع سكان المدينة، كبارا كانوا أم صغارا، على أخبار تلك المرأة مباشرة، ومن خلال ذاك الأعوج، عما إذا كانت لا تزال واقفة هناك، وماذا تتصرف.

اليوم هو يوم الجمعة. يسمع أذان صلاة الجمعة بشكل ضعيف للغاية. الذاهبون إلى الجامع يمرون عادة في هذا الزقاق. لأن هذا الطريق بالنسبة إلى المارة أقرب إلى الجامع ثم أكثر برودة. لم يبق أيضا وقت طويل للصلاة، والصوت الحزين للناي يشتد أحيانا ويخفت أحيانا أخرى كما العاصفة.

دنيا.. دنيا.. يا دنيا،

لمن كنت وفية؟!..

ومع أن الناس لا يعيرون كبير اهتمام لهذه الأنشودة الساحرة، يبدو أن ذلك الشحاذ الأعرج ذا اللحية الفضية والوجه المضيء يقود جوقة حياتهم الحالية عازفا في الناي الذي يحمله بيده. وبالرغم من حرارة الجو الشديدة، يهب النسيم المنعش عبر هذه الأزقة ذات الأعمدة والشبيهة بالأنفاق حيث تتكوم فوقها البيوت. هكذا سلكوا طرقا أخرى وهم يلعنون تلك المرأة. الحاضرون للصلاة مضطربو الذهن أيضا. فهم ساجدون هنا فيما يجول فكرهم حول تلك الجثة التي لم تدفن بعد، والمرأة العارية المسكينة.

المرأة والجثة في مكان مكشوف ليس ببعيد عن تقاطع الطرق، وشمس الظهيرة شرعت تحرقهما بحرارتها. البشرة التي لم تر وهج الشمس منذ الولادة والتي ابيضت كالثلج داخل البرقع تحترق مع الجثة. أخذ جسد المرأة يسود شيئا

فشيئا. هناك زوبعة تدور بجانبهما رافعة في الهواء قصاصات الورق. فإذا استمرت المرأة هنا على تلك الحالة يوما آخر فواضح أن جسدها الناصع البياض كالثلج سيصبح أسود قاتما مثل الفحم. إنها لا تأتي بأية حركة كما لو ودعت روحها منذ زمن. والجنين، معذبا تحت حرارة الشمس، يدور كحجر الرحى مع إيقاع صوت الناي، الذي لا يفتأ يدور في الفضاء. نظرة المرأة ثابتة لا تبرح الجثة. وتينك العينان تشبهان في هذه اللحظة لؤلؤتين مغروزتين في محجري دمية، ولا تودان أبدا أن تغمضا. هبطت بضع ذبابات على رموشها ثم طارت بعد برهة من الزمن. استمر صوت الناي مذكرا بهدهدة الأم الحنونة حينا وبالمقبرة العريقة التي تحيط الأرض، أحيانا أخرى.

وفستان فاطمة،

ممزق في سبعين مكانا..

ليس لديها مال لترقعه،

فلبسته فاطمة وفيه سبعون عقدة..

يشتد صوت الأغنية ويمتد إلى البعيد. كما أن الحيطان العتيقة والأزقة والمساجد القديمة في المدينة كأنها تتلو معا هذه الأنشودة.

بدت الجثة كأنها تتحرك ببطء شديد. ورائحة اللحم المتفسخ لإنسان بدأت تعم كل المدينة. تتصاعد من الجثة سحابة خفيفة لا تكاد تراها العين. تابعت عينا المرأة ما يحدث من أشياء كهذه، حيث استمرت هذه الحالة حتى المغيب. وعلى غير توقع، تجردت الجثة من أي لحم. ارتمت العظام على الأرض كالحطب. ومن قمة الجبل الجرداء تدنو الشمس. ابيضت كالثلج الهياكل العظمية النفيسة التي تتناثر على الأرض كما لو صفها أحدهم هناك، وتشع كالشمس. وقد اسود جسد المرأة كالفحم بحيث اعترى الشك من ينظر إليها بأنها آدمية.

ومع غروب الشمس حدث أمر عجيب. أرعدت السماء بشدة وأبرقت، ثم

هطل المطر بغزارة كما لو أن حادثة الطوفان ستتكرر من جديد. ولأن مطـــرا غزيرا كهذا لم يهطل من قبل، تملك سكان هذه المدينة رعب شديد، فبـــالأمس فقط ذهبوا إلى مقبرتهم الواقعة خارج المدينة مؤدين هناك صـــلاة الاستســـقاء. هطل المطر ساعات وساعات، وما كان يبدو أنه سيتوقف. وإذا استمر المطـر في الهطول بهذه الوتيرة طوال الليل، فسوف يغمر الطوفان ليس هذه المدينة الواقعـــة في مكان منخفض وبين النهرين أيضا، فحسب، وإنما حتى الامتـــداد الرملـــي الشاسع. وقد بدأ النهر يطوف. فالصخب القادم من ضفـــاف النـــهر يمـــتزج بصوت الناي الذي يسمع من مكان مجهول. هذا الصـــوت الغـــامض للنـــاي يطوف الشوارع، يتنقل من حارة إلى أخرى، يصيب القلب الإنساني بالأســـى. يمنحه الإحساس بأن السيوف والرماح تتشابك، تهوي الأعلام المهيبة واحدا تلـو الآخر، يسقط الفرسان عن الخيول، تتهاوى أسقف المنازل، تتكدس الجثـــث في الشوارع وتسيل الدماء أنهارا، وتشتعل الغابات.

والمطر الذي كان يهطل بغزارة أخذ يشتد بجنون. تكاد تمضي ثلاثـــة أيـــام بلياليها وهي واقفة أمام الجثة كالعامود. ولم تسقط على الأرض متهالكـــة وإن استنفدت كل ما يملك جسدها من قوة. الكون كله يئن بحزن في ظلام دامـــس كما لو بقي تحت قدر مقلوب. إلا الشعاع المنبثق من الهيكل العظمي يضـــيء المحيط كما النهار مطوقا تلك المرأة المنتصبة كالتمثال تحت المطر الغزير، والـــتي يبدو أن قلبها أيضا قد توقف عن النبض. عيناها تسمرتا في هذا الشعاع القوي. ويبدو أنها لن تتزحزح قيد أنملة حتى لو تقدم نحوها في تلك اللحظة سيل مـــن الطمي بعلو السماء.

المطر الهاطل بغزارة اخترق سقوف المنازل. وحتى البيوت الآمنة، التي بنيـــت فوق تلال يصعب على الناس صعودها، فقد تدفق إليها الماء. صرخات البشـــر وأنينهم المعذب ملأ السماء. إنهم يصرخون، ينتحبون، يطلبون النجدة من منقذ مجهول.

انبلج الصبح بعد تأخر طويل، وتوقف هطول المطر أخيرا. ولكن صوت الناي لا يبدو أنه سيهدأ. المرأة محدقة بالجثة فاقدة الوعي. شيء ساخن يصعد من قلبها ببطء وينسكب طافيا من محجريها. رأسها يدوخ، كيانها آخذ بالاضمحلال.

يخال إليها أنها بدأت تصحو من غيبوبتها، وانتظمت نبضات قلبها، فأطلقت صرخة كما الحيوان الضاري غير مصدقة ما رأته عيناها. فقد اختفت الجثة. وهناك يتمدد ثعبان أشقر بطول جسد إنسان. لعل الثعبان فزع أيضا من الصرخة العنيفة، إذ رفع رأسه ملقيا على المرأة نظرة حزن واستسلام للقدر، ثم دار حولها ثلاث مرات قبل أن يلج في حائط متشقق في مكان قريب.

الأيام التي تقضيها الأم مع ابنها لا تختلف عن حياة الكلاب والحمير. ملابسهم مصنوعة من خرق ألقاها الناس في المزبلة، حيث لا تشبه في الشكل أيا من تقاليد اللباس لدى شعب من الشعوب.

مضت بسرعة منذئذ سنوات طويلة. وخلال هذه المرحلة لم يخالطا أيا من البشر. إذ شككت الأم في نوايا الناس. وحتى موت زوجها اعتبرته مكيدة من قبل الآخرين ليزجوا هذه العائلة في المصائب. إنها قلقة على ابنها أيضا من شرهم. لم ينفتح باب بيتهم، ولا مرة، منذ سنين طويلة. أما في الواقع فبدءا من اليوم الذي ولد فيه الطفل اشتهرت سمعة هذه العائلة بسرعة لا مثيل لها بين سكان المدينة. وقد أصبحوا يقدسونهما. فقد بات حلم كل إنسان رؤية الأم وابنها. لم يستطع الحاضرون لقاءهما مهما حاولوا، فغادروا تاركين صدقاتهم متكومة أمام الباب. المرضى، الزوجات العقيمات، ذوو العاهة، العجائز القريبون من حافة القبر.. أولئك كلهم سألوا ذاك الطفل المبارك أن يشفيهم ويوفقهم في شؤونهم.

بعض المتضرعين توسلوا ليل نهار حائمين حول بيتهما. والمرأة العجوز، التي لم تكلم أحدا منذ أن ولد ابنها، اعتبرت الذين يغدون ويروحون بشارة لشر

مجهول. وقد طرقوا الباب، اشتكوا لهما راجين متوسلين. ترقبوا أن تفتح العجوز لهم الباب. لكنهم اضطروا للرحيل حين لم تجر الأمور كما اشتهوا. وكلما هدأت خطى الناس، نقلت العجوز إلى داخل البيت، خفية، الأطعمة التي تركوها أمام الباب. فمنذ أوصلها الناس إلى بيتها مع ابنها المولود، لم تسنح لهم فرصة أخرى لرؤيتهما. لكن، ما من خيار سوى تصديق الأخبار بأن الأم والابن ما زالا على قيد الحياة. وكذلك بيوت الذين ساعدوا المرأة الوالدة آنئذ لم تخلو من الزائرين. جاء بعضهم لكي يشفوا من مرضهم، وبعضهم الآخر قدموا من أقاصي البلاد ليحجوا خصيصا هؤلاء الناس الذين شاهدوا القديس.

كبر الطفل يوما بعد يوم. وقد حرم لسنين طويلة جدا من رؤية أي إنسان ما عدا أمه. استمرت الأم خائفة للغاية من احتمال وقوع ابنها بأية علاقة مع الآخرين. ولهذا السبب، لم تنهضه من المهد من الصباح وحتى المساء كيلا يتعلم المشي. ومع ذلك، بقيت الأم المسكينة خائفة. لم تطمئن على ابنها ولو دقيقة.

وحتى عندما غطى الشاربان واللحية وجه ابنها، ظلت العجوز تداعبه لامسة جسده بتعطش، دونما شعور بأي غرابة، وهي تقول "مولانا.. مولانا..". ولما بلغ الفتى سن الرشد بالكاد استطاع أن ينطق بعبارات مثل "مولانا.. مولانا..."، ويقلد صوت الناي. كما أصبح يعبر عن عطشه وجوعه أيضا قائلا "مولانا.. مولانا..". وفي بعض الأحيان، حينما تدلله أمه قائلة "مولانا.. مولانا..."، أصبح يدللها هو بدوره قائلا "مولانا.. مولانا..."، وهو يعتقد بأن عليه أن يفعل كذلك.

بدا للمرأة العارية أن دماغها سوف ينفجر. وخيل لها أن الجثة أخذت تلتصق بالأرض رويدا رويدا. اشتد صوت الناي القادم من السماء، وقاد المرأة إلى عالم تعيش فيه روحها بلا جسد. إن هذا الصوت قد رافقهما في ليال لا عد لها. وفيما بعد، ارتبط قدرهما بشكل لا ينفصم عراه بهذا الصوت. فإذا لا يسمعان ذاك الصوت يرتجف قلباهما من الخوف، يقلقان، يتألمان حيث لا يعرفان ماذا

يفعلان، لكنهما ظلا محظوظين. وما إن يشتد ذاك الصوت حتى يضحك الطفل أيضا في المهد. فتحمر وجنتاه كالرغيف في التنور، وتتألق عيناه.

رجل، تجاوز سن الأربعين، وتغطي وجهه لحية كثيفة، يسير في زقاق مظلم ذي أعمدة. إنه بمشيته، وقوامه، وثيابه نصف العارية لا يشبه أحدا. يقلد باستمرار صوت الناي.

أصبحت المرأة ماهرة في تسلق السطح عبر النافذة منتصف ليل كل يوم. تشبه الأسطح المتلاصقة ببعضها ومختلفة الارتفاع مقبرة هائلة من النظرة الأولى. إنها تمتد إلى البعيد كما لو تود أن تتصل بنهاية العالم. لا يمكن العثور بسهولة على بقعة من الأرض في هذه المدينة المزدحمة بالسكان، حيث يستفيد الناس من سطوح منازلهم بمثابة مطبخ، أو مرحاض، أو مستودع. فهي تعود خفية بما سرقت من أحد السطوح دون أن تضطر للنزول إلى الشارع.

منذ أن مات زوجها تحت حطام الحائط، ألقي على كاهلها بكل أعمال البيت. ولكي تعتني بابنها جيدا، أخذت تعمل كل يوم بلا كلل بصناعة المهود. فالمهد الذي يتم صنعه خلال شهر أو سنة يغدو لا يتسع للطفل بعد مرور شهر أو سنة. وبخاصة، بعدما تجاوز ابنها سنه السابعة أخذ طوله يزداد بسرعة قصوى، إذ لم تستطع عمل أي شيء حيال ذلك وإن أرادت ألا يكبر ابنها بهذه السرعة. إن كل مهد لأكثر غرابة من الآخر مظهرا، لا يمكن اعتباره سريرا أو حتى نعشا، ومن ينظر إليه تصيبه الرعشة رعبا. تقص الأم على ابنها باستمرار حكايات عن الجن. فهي تعرف الحكايات الكثيرة للغاية والمتعلقة بالجن الذي يخاف من النار، من الإنس، ومن الخطوط المرسومة. ولهذا السبب، اختلطت لدى الابن ببساطة صورته والجن. إنه، بعدما سأل أمه عن شكل الخطوط المرسومة وارتعب بشدة من جوابها، لم يجرؤ على سؤالها مرة أخرى ماذا تكون النار والإنس، قاضيا هكذا عقودا من الزمن.

لقد غدا فتى كبيرا. وبدا أن أمه لن تتراجع عن عزمها بأن لا تعلمه المشي

والكلام. ازداد عدد المهود عاما بعد عام. إن أصغرها متر أو متر ونصف المتر طولا، في حين أن أكبرها يصل طوله إلى مترين أو مترين ونصف المتر. امتلأ البيت حتى السقف بالمهود المصنوعة بشتى أنواع الخشب، والمختلفة حجما عن بعضها البعض. ومن بين المهود أيضا بدأ يسمع، دون انقطاع، صوت ضعيف يشبه ذاك الذي يتصاعد من الناي.

شجرة البلح، التي نبتت في فناء البيت، نمت ممتدة الأغصان في كل اتجاه، حيث دفنت البيت تحت أوراقها. ومع مرور الزمن، استوطن شجرة البلح الهرمة هذه كثير من مخلوقات الأرض كالضب، الخفاش، الأفعى، والطيور. والخرق المختلفة الألوان والمعلقة على الأغصان الصغيرة من قبل المتضرعين منحت بكثرتها فناء البيت مظهرا غامضا مثل المقبرة. وقد ازداد عدد الزائرين عاما بعد عام. فبالمقارنة مع العام الماضي تضاعف عدد الزائرين في العام التالي عدة أضعاف. فلقد شفي من أمراضهم بقدرة الخالق أولئك المرضى الذين قصدوا هذا المكان. والعديد من النساء العقيمات أصبحن أمهات لأبناء ممتلئين صحة ونشاطا كالحملان. وتحقق للعشاق، الذين احترقت قلوبهم بنار الهوى، مبتغاهم.

الشيخ الأعرج، الذي يتسول جالسا على زاوية الشارع، يعزف الناي غائبا عن العالم. يستمر شارد الفكر. دموعه ترطب لحيته البيضاء. وصوت الناي المعذب يفيض في السماء.

أيا دنيا! يا دنيا!

لمن كنت وفية؟!

وحتى ذوو الجبروت

خلدتهم في جوف الأرض..!

بلا شعور، اغرورقت العيون بالدموع حيث تناهى إلى السمع النداء الذي يتصاعد من الناي. وكأن هذا النداء يهز الحياة بوحشية باحثا فيها عن شيء مجهول.. ثم يغيب في ذاك الصوت الصادر، باستمرار، من الناي الحزين.

الطفل يولد في هذه اللحظات. وخلف نافذة في مكان خاف فتى أعرج يعزف الناي. تسيل الطرقات إلى داخل النار التي تشتعل.. صوت الناي يجعل الحياة ترتعش.. مدينة يلفها الخراب تحت ألسنة النار الممتدة إلى أعالي السماء.. مهود كثيرة للغاية رديئة المنظر.. ثعبان يعبر طائرا.. امرأة اسود جسدها كالفحم، شعرها مشعث، وكأنها مصابة بمرض عقلي، تنتصب وسط الشارع وتحت وابل من المطر. والشمس لا تحرك ساكنا كما لو أنها مكبلة في وسط السماء. تتهاوى الطيور متهالكة متقطعة الأنفاس. والصحراء التي تحيط المدينة، والحارقة كالتنور، الممتدة بلا حدود، تضغط على الحياة كالكماشة.

وما إن ابتدأت أيام القيظ حتى سحبت مياه النهر، وملأ الغبار جميع الطرقات والأزقة. شعرت العجوز بضيق يجثم فوق صدرها. جرعت كوبا من الماء في دن ترسبت تحته طبقة من الطمي، ثم ألقت بنفسها في فسحة ضيقة بين المهود متأوهة: "أوه!.." الجو خانق، إذ يصعب التنفس. ويراقب حركات أمه فتى مشعث اللحية، يتمدد مربوط اليدين والرجلين بإحكام في مهد غليظ المنظر يشبه النعش.

من مكان بعيد للغاية عن البيت تناهى إلى السمع صوت مكتوم وضعيف للناي. ثم، فجأة، بدا أن ذاك الصوت أخذ يقترب ويمتزج بصوت صادر من المهود. وإن ذاك الصوت كأنما يطوف بسرعة قصوى حول حيطان البيت. تدفق الدم إلى وجنتي الفتى المتمدد في المهد. وبالرغم من أن عينيه قد اتسعتا من الغبطة التي تملأ كيانه، شرع قلبه ينبض بإيقاع قلق. ومع اشتداد ذاك الصوت أخذت أوراق شجرة البلح الهرمة في فناء البيت تتساقط كالثلوج. منذ سنين طويلة جدا لم يحدث أمر كهذا على الإطلاق. وحتى لو اشتدت حرارة الجو وانتشر الجفاف لم تكن أوراق شجرة البلح تتساقط إلا في أواخر الخريف أو في برد الشتاء، وعلى الأقل، بعد هبوب الأعاصير التكليمكانية في الخريف. فخلال فترة وجيزة، اصفرت الأوراق في فناء البيت متساقطة. ولم يبق على الأغصان

سوى ثمار البلح كاللآلئ، والأعلام الصغيرة والخرق، القديمة منـــها والحديثـــة، المختلفة الألوان، التي علقها الناس. وقد انتفضت المخلوقات التي استوطنت لحاء شجرة البلح الهرمة وتجاويفها.

أخذ ذاك الصوت يشتد. وفجأة، بدأ الرعب يكتنف البيت. شرعت رجـــلا العجوز في التشنج، وازرقت شفتاها حيث لم يبق في وجهها أثر للدم. عيناهـــا تغمضان بقوة من المرارة. وأخذت أسنانها تصطك كما ترعد الغيوم. إنـــها لا تود أن تفارق ابنها ولا حتى دقيقة. المطر يهطل بغزارة. السيول في الشـــوارع. البكاء المر لطفل يولد في هذه اللحظات يجرح قلب الأم الطافح بالألم. الطمـــي المتناثر يلطخ جسدي المولود والأم. شعاع شبيه بالثعبان يدور حولهما طائرا.

أحس الشحاذ في زاوية الشارع بأن أنفاسه تختنق في صدره، لكنـــه يعـــزف الناي بوحشية وقد ازداد اضطرابا. تردد القبب العالية للمساجد والخربة مـــن القدم تلك الأنشودة.

أخذت وأخذت ولم تشبعي،
ولم تتركي الذين ذهبوا.
ولم يعد الذاهبون كذلك،
فلمن كنت وفية؟!..

يغني الشحاذ، وهو يغني، يغيب شارد الفكر بألم. يلوح لعينيه شجرة البلـــح وما تجري من أحداث خلف ذاك الباب الذي لم ينفتح ولو مرة منـــذ ســـنين كثيرة.

بدا أن ذاك الصوت سيصم الآذان. الألم والتحسر يعذبانه. بـــدأ الشـــحاذ الأعرج يشعر بالندم على فعلته. تأسف بشدة على بشراه للناس بولادة طفـــل مبارك، ولكن يديه القويتين تعزفان الناي بعنف. شرع يتذكر شبابه وهو يتلـــو سورة قرآنية يصعب عليه فهمها. وبدا له أن ذاكرته لم تحتفظ إلا بامرأة عاريـــة وطفل يشع النور من جسده رآهما في ليلة ممطرة في ذلك الحين. والباب، الـــذي

لم ينفتح ولو مرة منذ سنين طويلة للغاية، أخذ يعتم عينيه، إنه أمسى لا يبصر شيئا. لا يخلو الشارع من خطوات المارة، والعجوز تحتضر، تتلوى، تئن، وقد أخذ الألم الذي لا يحتمل يضيق عليها الخناق كالمشنقة.

من الركن الواقع على اليسار ولج نور بطول المكنسة ممتدا إلى داخل البيت. يتمدد الفتى في المهد مراقبا هذه الأمور بشكل مباشر. طاف النور داخل البيت بسرعة البرق، ثم حط على جسد العجوز. وقد شاهده الفتى بصورة خاطئة. لم يكن الشيء الذي انبثق من الزاوية نورا وإنما كان ثعبانا. امتد الثعبان بسرعة قصوى ملتفا حول جسد العجوز بإحكام ولم يترك منه فسحة بحجم الظفر. تألق لهب أزرق من قرنه ولسانه ذي الفرعين.

تحطم خشب المهد مع صرخة مرعبة كصرخة حيوان، وتقطعت الحبال التي تربط يدي الفتى ورجليه. فقد ارتعب بشدة من صرخة أمه. لقد اختفت من وجهه تلك الغبطة. غادر الفتى من النافذة بسرعة القرد تاركا أمه في البيت. إنه وقت الظهيرة، ولم يراه أحد وهو يجري فوق الأسطح مرتعدا.

إنه يسير مرتبكا في زقاق يمتد على جانبيه صفان من الأعمدة حيث بنيت فوقه منازل كشباك العنكبوت. يوشوش لنفسه باستمرار قائلا "مولانا.. مولانا..". وبدون أي سبب، أخذ صوته يرتفع. لم يستطع السيطرة على نفسه. وفيما يسير، واجهته الخطوط المربعة التي رسمها الأطفال الصغار على تراب الطريق. فارتعب بشدة، وصرخ قائلا "خطوط..! خطوط..!" غير متمالك نفسه. حدق بما حوله متفحصا بهلع لا مثيل له. بضع بنات في سن السادسة أو السابعة، مرتديات ثيابا رثة، مجدولات الشعر بضفائر صغيرة، يلعبن في مكان قريب منه. تسمرت البنات في أماكنهن مذهولات يحملقن في وجه ذاك الرجل الغريب. والرجل الغريب قد تذكر الحكايات عن الجن، التي قصتها عليه أمه، واتسعت حدقتا عينيه الزرقاوين. برق في تينك العينين تعبير غريب كنظرة حيوان وهو خائف. ارتجف جسده، وأصاب الدوار رأسه. تجمد في مكانه فترة

طويلة كخازوق غرز في الأرض. ثم ثاب إليه رشده فجأة، وحدق من جديد بملء عينيه بالخطوط المربعة التي تملأ الشارع، فدار حول نفسه ثلاث دورات مقلدا صوت الناي، وبعد ذلك، استدار قائلا "مولانا.. مولانا.." وأطلق سيقانه للريح من حيث أتى.

تبعته أولئك البنات بمحدولات الشعر. والأطفال الصغار الذين خرجوا إلى الشارع ليعرفوا ما الذي حدث انضموا هم أيضا إلى الحشد. وفي الأخير، حتى كبار السن قد لحقوا بموكب الأطفال. معظمهم سائر بلا سبب غير عارف ما الذي يحدث. يتدافع موكب المحتشدين وهم يصيحون "مولانا..! مولانا..!"، مقلدا هذا الرجل الغريب ذا الشعر المشعث واللحية الشقراء والساقين الطويلتين. يبدو أن صياحا كهذا جعلهم يستمتعون. ومع أن ضحكات السائرين في الموكب ودعاباتهم أقامت الشارع ولم تقعده، يلوح في وجوههم الخنوع، والخوف، والذل.. السائرون كثر، لا عد لهم. استمر اللحاق حتى المساء. والذين تبعوا راكضين وراء ذاك الرجل الغريب ذا اللحية الشقراء قد تهالكوا من التعب. وما إن خيم الظلام حتى تبادل الذين في الشوارع أماكنهم مع النجوم. وقد شاع في المدينة أحاديث شيقة عن "مولانا". بعضهم وصفوه بـ "أنه رجل أنيق للغاية، ذو بأس وقوة.. لقد اندثر رجال كهؤلاء قبل زمن طويل جدا"، وبعضهم قالوا "إن جدي كان مثله رجلا له لحية شقراء، عينان غائرتان، أنف صقري، وكان شجاعا كالذئب..". كذلك قال الآخرون "إنه، بالرغم من جسده الضخم مثل الجمل، رجل خائف مثل الأرنب، وإذا كان شجاعا فلماذا يخاف من الخطوط؟!..". لكن أحدا لم يكن يعرف من أين أتى مولانا.

هذا الرجل، طويل القامة، عريض المنكبين، كثيف اللحية، أينما يشاهد خطوطا مرسومة، يدور حول نفسه ثلاث مرات مقلدا صوت الناي، ثم يتسلق السطح قائلا "مولانا.. مولانا.."، "خطوط.. خطوط..".

إنه يظهر في هذا الشارع حينا، وفي ذلك الشارع حينا آخر. ويظهر في هذه الجهة من المدينة أحيانا، وفي تلك الجهة من المدينة أحيانا أخرى. وكذلك كثرت الأحاديث حول ذلك. جميع الناس اعتادوا على تسميته بـ "مولانا". يقال إن مولانا يستطيع معرفة ما يحدث في أطراف العالم، كما يستطيع سماع ما يتحدث به الموتى. لقد غرق المتخاذلون السفلة في اضطراب شديد.. أولئك الذين يمارسون أشياء منحطة في زوايا خافية عن الأنظار وفي أمكنة مظلمة.. الذين يخونون زوجاتهم أو اللواتي يخن أزواجهن حيث يقترفون آثاما في حب حرام وفوق سرير حرام.. فقد أقلق مولانا راحتهم التي استمرت مئات السنين.

عاكس الحظ مولانا، إذ ما إن غادر البيت حتى صادف في طريقه، كأن لعنة الله نزلت عليه، خطوطا رسمها الأطفال الصغار. منذئذ، تكاثرت الخطوط في الطرقات. أصبح الناس، كبارا كانوا أم صغارا، وكأنهم متفقون، يرسمون خطا كبيرا غليظا في وسط الطريق بقصد إزعاجه. وقد أسر هذا الأمر بخاصة أولئك الآثمين الذين يمارسون سيئاتهم بعيدا عن أنظار الآخرين. فامتلأت شوارع المدينة كلها بالخطوط الشبيهة بأسوار السجن. ولم يبق فيما بعد أي إمكانية لمولانا لأن يولي وجهه في أي اتجاه.

حالف الحظ مولانا. فقد ضاق ذرعا من سكان المدينة. إذ كان هذا اليوم يختلف عن سابقيه. لم ير في الشارع الذي يسير فيه أي إنسان، كبيرا كان أم طفلا صغيرا. هبط المساء، وشع من جسده نصف العاري نور خافت.

إن مولانا، بقضاء الله وقدره، أوصلته خطواته إلى تقاطع الطرق حيث هوى الحائط فوق أبيه. وحينما اقترب من هيكل عظمي لإنسان أبيض كالثلج ومضيء كالمصباح في وسط الشارع، تجمد في مكانه مشلولا من الحركة. وفي تلك اللحظة، انسل من شق الحائط ثعبان طويل معترضا طريقه، ثم حاصره من حوله على شكل دائرة.

في هذه الأثناء، كان ظلام الليل قد اشتد، والناي ما يزال يعزف. وكل شيء

في المدينة كان يردد صدى الناي. وكان يبدو أن الجبال ستســـوى وأن الأرض ستزلزل زلزالها تحت ثقل هذا الصوت الحزين.

.. ..

أيا دنيا، يا دنيا،

لمن كنت وفية؟!

وحتى ذوو الجبروت،

خلدتهم في جوف الأرض..

.. ..

والشحاذ الأعرج ذا اللحية البيضاء والوجه المضيء كالملاك كان يبدو أنـــه لا ينتهي في الوقت القريب من انهماكه في إخراج أحداث هذه المدينة.

أركين نور

نحيب

ما إن مرت بعضة أيام على رحيل زوجته لتزور أهلها في مدينة نائيـــة حـــتى ظهرت على جدار هذا البيت امرأة. كانت تضطجع مغمضة عينيها الثملتـــين نصف إغماضة وهي تعانق أفعى سوداء أكبر منها حجما.. إنه منذ أن وجـد في هذا العالم حتى هذه اللحظة لم يتمعن في رؤية جسد عار لأيـــة امـــرأة وحـــتى زوجته. ما أجمل الأجساد العارية للنساء!.. بدأ يشعر بذلـــك الآن. كـــان لا يستطيع أبدا أن يزيح نظرته عن ذاك الجسد، الجسد العاري.

ـــ هل أنت متزوج؟

ـــ كلا، إلى الآن..

بعدما أجاب المرأة عاتب نفسه في داخله على عدم مصارحتها بالحقيقـــة. في الواقع، فقد ذهبت زوجته لتلد عند أهلها. أما هو فينام على سرير واحد مـــع امرأة أخرى.. فجأة، سمع أحدا يبكي بصمت. إنه متأكد من أن المرأة التي بـــين ذراعيه لم تكن تبكي. لأنها في هذه اللحظة منهمكة بالمداعبات والتأوهات.

البكاء نفسه كان يشتد شيئا فشيئا، وكلما يشتد كان يأخذ طابعا مأســـاويا. كان يشبه بكاء أنثويا إلى حد بعيد، لعلها هي!

ـــ ..يا كبدي الذي ولد ميتا، يا بني، آه يا بني!..

ارتعب، لم يصدق أذنيه. إن زوجته في مكان يبعد عنه مسافة خمسة أيـــام، وحتى لو أصبح سمعه مرهفا للغاية فليس بإمكانه سماع أصوات تصدر من مكـلن يبعد كل هذا البعد. لعله إحساس خاطئ.. كلا، كان هذا البكاء الجنائزي بكاء

حقيقيّاً!

ـــ أحبّك.. هل.. هل تتزوّجني؟

كذلك ارتفع صوت البكاء، وهذه المرّة، كان يشبه أنيناً معذّباً لزوجته التي تعاني المخاض.

ـــ ويلاه!.. يا ربّ، دعني أموت ولا تتركني في هذا العذاب!.. آه، يا دكتور، أرجوك، لم أعد أحتمل، أنقذني من هذا الألم، أعطني إبرة لأهدأ إلى الأبد!..

ـــ لماذا لا تجيب؟

ـــ كلاّ، لي زوجة.

ـــ ها.. ها.. ها.. وإذا كانت لك زوجة؟! وأنا مثلك أيضاً، لي زوج.. دعك من مفاهيم بالية كالإخلاص أو ما شابه ذلك..

ـــ ساقطة!..

ـــ أنت أكثر.. تعيش وأنت تخدع نفسك والآخرين، تحاول أن تسعك الأطر الضيّقة التي لم تعد صالحة لهذا العصر..

ـــ الجنين في وضع مخالف.. نحتاج إلى عمليّة جراحيّة، ولا بدّ من موافقة الزوج. الجنين في وضع ميئوس منه..

ـــ نحن سنوقّع بدلاً من زوجها، فليكن إذا كان ليس بالإمكان إنقاذ الجنين، فنحن راضون إذا بقيت ابنتنا في أمان!..

ارتفع من جديد صوت بكاء مرّ ومفجع. فسرعان ما رفع رأسه مجيلاً بنظره على زملائه في المكتب، حيث رآهم منهمكين بأعمالهم. لا أحد يبكي، لعلّها زوجته..

ـــ حبيبي، يا رفيق عمري.. يا حبيبي.. كيف تموت وتتركني وحيدةً في هذا العالم!.. فبدونك ماذا سيحلّ بي!..

ألست حيّاً أرزق؟ لعلّها جنّت أو إنني ميت حقاً.

في المساء، بعدما غادر المكتب، صادف طائراً يبكي بمرارة على شجرة الصفصاف المجاورة لساقية تمرّ أمام البيت. "لعلّه روحي" فكّر بكآبة.

استلم اليوم برقية من زوجته، فقد ولدت، أنجبت صبياً.

عندما عاد إلى بيته، شاهد تلك المرأة العارية تضطجع في مكانها الأصلي، على الجدار. وقد اقترب موعد عودة زوجته. للنساء طبائع غريبة، يغرن حتى من الصورة. ينبغي إزالتها قبل أن تصل زوجته!

مهما حاول، لم يستطع أن يطرد تلك المرأة من البيت، إذ التصقت بجسده ولم تترك له المجال لأن يتحرك قيد أنملة.. وبالإضافة إلى ذلك، كان يخاف إثارة غضب الأفعى السوداء التي تحميها.. أحاسيس لذيذة للغاية تنساب إليه متموّجة، وتنساب.. غفوة ممتعة.. ليس لديه رغبة بأن يأتي ولو بحركة، كما انعدم فيه أيّ مجال لذلك. وقشور الحياة أخذت تتناثر حوله باستمرار..

هكذا استمرّ مع تلك المرأة في البيت نفسه.

ثم، ذات يوم، لاحظ أنّ تلك المرأة أيضاً كانت تبكي، تبكي منتحبة، والدموع التي تسيل فوق خدّيها كانت تتساقط على قلبه..

كانت قد بكت هكذا حتى في ليلة الزفاف، إنما لم يكن دمع فرح..

منذ ذلك الحين، أينما ذهب، كيفما تصرّف، أصبح يسمع على الدوام شخصاً يبكي، ينتحب، فتتملكه هو أيضاً رغبة بالبكاء. كان دماغه يضجّ بالأنين، البكاء، والنحيب المستمرّ. وفيما بعد، لاحظ أمراً آخر: تلك المرأة وكذلك زوجته، والحشرات، الطيور، الخراف، الكلاب، القطط، وحتى الأشياء التي تعتبر من الجماد كالكتب، الحيطان والسقوف، الأبواب والنوافذ، وكل شيء في العالم كان يبكي بصمت..

وعندما حكى ذلك لأحد أصدقائه، تسمّر صديقه محملقاً في وجهه بصمت وقد اتسعت عيناه من الدهشة، لأنّه لم يصدّق.

وبدءاً من اليوم التالي، انتشر في المدينة كلها خبر مفاده أنّ عبد الله قد جن.

امرأة بلا شكل

لقد تزوج تسع مرات قبل أن يناهز عمره الثلاثين، ولم يكن هو نفسه يعرف الإجابة لماذا واجهه هذا المصير. كان الناس يشمئزون منه معتبرين أنه "زير نساء". وطبعاً، كان متقلب العواطف لا يستقر له قرار، ومع أنه يعترف بذلك، كان يعاني عذاباً شديداً وقد باءت بالفشل كل محاولاته لأن يغيّر طبعه المبتذل..

وفي النهاية، أحس بأنّ أية امرأة لا يمكن أن تناسبه، فقرر أن ينحت امرأة لطالما أنشدها قلبه. ولأنه أراد نحت أجمل امرأة في العالم، انهمك بعمله بكل حيطة وصبر وبكل جوارحه. والغريب في الأمر أنه بعدما اكتملت هذه المنحوتة أحبها مثلما كان يعشق من أول نظرة الفتيات الجميلات اللواتي من لحم ودم. وظل أياماً ينظر إلى هذه المرأة بلهفة كما استغرق في ذاته شارد الذهن. لا ريب في أن هذه المنحوتة في غاية الروعة، ولكنها في النهاية بلا روح ولا عاطفة!

في كل مساء، كان يتضرع إلى الله راجياً: "يا إلهي البديع، إنّ أجمل جسد في العالم أهديته أنا لهذه الفتاة، والآن ليتك تهبها أجمل الطبائع، وأغنى العواطف والمشاعر، تلك الروح المقدسة والخالدة!..".

ذات يوم، تحققت مشيئته بالفعل. فقد دبت الحياة في تلك الفتاة، إذ تحولت إلى حورية من لحم ودم. ثم إنها كانت ذكية وسريعة البديهة إلى درجة أنها لا تعرف ما يفكر به فحسب وإنما تستطيع رؤية حلمه أيضاً وكأنها تشاهد شريط سينما. لم يكن قد رأى في حياته نساء يفهمنه بهذه الدرجة، وحتى هو لم يكن يفهم نفسه جيداً بهذا القدر، فقد كان مسروراً للغاية من هذه الحورية، وفخوراً بها.

أقاما حفلة لعرسهما أمام الملأ وقد استمرت سبعة أيام بلياليها.

مع الأسف، كلما طال الزمن أخذ يخف حبه لها بالتدريج وبلا سبب، وبتعبير أدق، بدأ يسأمها. وهكذا حتى هذه الحورية المثالية لم تستطع أن تروي غله. كان يهفو دائما إلى امرأة أخرى.. أما تلك الحورية الآن فقد تحولت إلى طين بلا روح وأحاسيس.

لقد عاد بذلك إلى نمط حياته السابق. إنه من جديد ظل كما هو "زير نساء". وفي الحقيقة، إن التي يهفو إليها كانت امرأة بلا شكل، بينما هو نفسه لم يكن يعرف ذلك.

تحليق

عاصفة تهب. زجاج منكسر. حائط مائل. نسر يغوص في عمق الليل..

تصعد موسيقى الجاز دون انقطاع. وتسبح السيقان بإيقاع فـــوق أرضيـــة القاعة. وشوشات، خفيضة كما لو يكلمون أنفســـهم. صـــراع، صـــراع، ثم صراع. صقور تجرح بعضها.. أنين يصعد من الهاوية بين دماغ وقلب، بين واقع وحلم..

أنا في تلك الهاوية.

أمامي امرأة ترافقني ولا أعرفها.

ـــ لماذا تحدق بي هكذا؟

ـــ حتى أنا نفسي لا أعرف..

ـــ أنت غريب، كأن لديك مزيدا من الكلام لتقوله، في حين لا تنطق ببنـــت شفة. تضحكني، فعلا أنت غريب..

ـــ ...

ـــ أود أن نعيش كما عاشت حواء وآدم..

ـــ لم أفهم ما تقولين..

ـــ لم أر في حياتي عينين مرعبتين كعينيك.. مرعبتان بـــالفعل.. مرعبتـــان للغاية.. أخاف منهما إلى حد بعيد، كما أنني أحب أن تصبحا أكـــثر رعبـــا.. لعلهما تغدوان أكثر جاذبية كلما اشتدتا رعبا..

شارع مغطى بالثلوج، أسير. نظرتي تحدق بنافذة تشتعل. إن تلـــك النـــافذة ليست من هذا العالم بالتأكيد، لعلها عالم جديد أكثر اتساعا وغموضا. هنـــاك، نعيش أنا وعلياء لوحدنا، بعيدا عن كل شيء. حلم، وحمامة بيضـــاء مباركـــة

تنقل الرسائل.

كنت أبحث كي يغمرني الثلج، لأموت تحته مختنقا، لكن الثلوج التي هطلت لسنين عديدة دون انقطاع لم تغط الكاحلين.

نظرت إلى عينيها من جديد. في سماء بعيدة جدا ومجهولة يهطل الثلج، وهذه الثلوج التي تهبط فوق كياني تدفئ قلبي البارد كالجليد. أرض غامضة، سحرية. البحر، وهو كسمكة ذهبية تسبح تحت البحر، في قاع البحر، كطائر يحلق في أعالي البحر، إن توقف دقيقة من السباحة، من التحليق، سيغرق على الفور، سيلفظه البحر إلى الأبد.

شاحنة دواليبها مغروزة في الثلج تدور في مكانها، مليئة بالحمولة. تحاول أن تنطلق، ترتج بعنف، ولا تستطيع الخروج من الحفرة. والسائق، إذ لا يود أن يتخلى عن الحمولة ويرحل، ربما سيتجمد من البرد في ليلة شتاء كهذه..

عاصفة تهب. زجاج منكسر. حائط مائل. نسر يغوص في عمق الليل..

الخوف من الذات

كنت قد نزعت عني قناعي وألقيت به في الشارع، حتى حياني المارة بكـــل احتفاء، قائلين:

ـــ مرحى!..

لأنهم أيضا كانوا قد ضاقوا ذرعا من الأقنعة.

لكن، من كان يتوقع أنني سأثير غضبهم بعد ذلك؟

فما إن رأوا ذاتي العارية والمظلمة حتى دفنوني تحت لعناتهم.

ـــ أيها الإبليس الملعون، المتجرد من الإنسانية!..

حينئذ، بدأت أفهم لماذا البشر يعيشون من الأزل إلى يومنا هذا متدثرين تحت الأقنعة الأبدية.

فرهاد تورسون

الشرشف

كان يتمنى أن يكون لديه تخيلات في غاية الغرابة. فقد سئم مخيلته البـــاردة، الهادئة، الخاصة به منذ الولادة. في كل مرة، وهو يحاول بما لديـــه مـــن قـــدرة واندفاع كي يتخيل الأشياء الغريبة، كانت مخيلته تجابهه، أيضا، بالعناد المعـــهود. وهل رغب عن أن يتخيل، أم انزاحت المخيلة خارج مناطق نفوذه، كان هـــذا أمرا مبهما. كان يعتقد بأنه قد ترك تخيلاته تتحرك بحرية تامة. لكن تخيلاتـــه، وهي تتمدد بشدة (هكذا برأيه. أما برأيي فليس كذلك)، وتنتشر في الفضـــاء الشاسع، كانت تصطدم بقوة بأشياء مجهولة، فتصبغ كل الأجزاء من جســـمها بدم قريب من اللون الأزرق قبل أن تتوقف عن الحركة. والدم الذي يسيل منـها كان يصدر صوتا شبيها بالأزيز، فيتحول على الفور إلى ألم، وينتشر ببـــطء في دماغه. وحتى هو لم يكن يتكهن بماذا اصطدمت تخيلاته، على غير توقع، وهـــي تنتشر في المحيط بهذا القدر من الحرية. إنه ليس باستطاعته، حـــتى، أن يتخيـــل اصطداما مفاجئا كهذا. كان يفكر في البداية بأن تتعلق، رويدا رويدا، بأشـــياء مجهولة، وأن تزداد هذه الأشياء التي بها تتعلق تلك التخيلات. وفيما بعد، أصبح يتمنى،أيضا، أن تكون كذلك. ثم، في الأخير، اقتنع بأن ذاك الشـــيء، الـــذي أوقف تخيلاته حينما اصطدمت به، هو جمجمته.

"ما هو الغريب؟"، هل هكذا فكر، أم إن هذا التساؤل قد انطرح بنفسه عـــبر تفكيره، لا يمكن البت في ذلك. في ما مضى، لم أكن أعرف رأيـــه إزاء هـــذا التساؤل. لكنه، اليوم، على غير توقع (غير عابئ برفضي الشديد)، قدم لـــه في

دخيلة نفسه إجابةً مغايرة تماماً: "مفهوم الغريب يطلَق لجهة الواقع. فإنّ الغرابة هي عدم التطابق مع قوانين الواقع". لو إنّه قطع تفكيره هنا، لرضيت. لكنّه لم يفعل ذلك. في الختام، أضاف فكرته القائلة "لكن، وحتى قوانين الواقع؟ أوليست تلك غرابة؟". إنّ معارضتي ذهبت سدى.

كان سائراً في مكان مثير للاستغراب. فما كان بالإمكان معرفة هذا المكان، هل هو شارع أم برّية؟ حتى هو لم يعبأ بالتفكير بذلك. كذلك أنا لم أهتمّ. في هذا المكان (لعلّه ليس الأرض)، كان ببطء ينتشر ضباب كثيف، ويتناهى إلى السمع، دون توقّف، كما لو أنّه نداء خافت، قادم من مكان جدّ بعيد، من مكان لا يُرى. الصور المجهولة للغاية، والغريبة (هو فكّر فيما بعد بأنّ هذه الصور لها علاقة بشخصه، وصدّق من خلالي حتى بأنها جدّ قريبة. لكنّه لم يكن يدري من تكون تلك الصور)، مثلتْ تحت بصره واحدة تلو الأخرى، ثم عبرتْ إلى خلف دماغه. هذه الصور، هذه الوجوه الجامدة والصلبة، كان يجوز اعتبارها، أيضاً، صورة شخص لوحده. لعلّها بدت صوراً كثيرة، لا عدّ لها، وهي تتغيّر باستمرار، تتجدّد، تتّخذ آلافاً من الأشكال. لم أدعه يفكّر حول هذا. كان هذا بالنسبة له طبيعياً ببساطة، لذا، ما كان هناك من حاجة للتفكير في هذا.

كان يسير عابراً بين الصور المجهولة واحدة تلو الأخرى. لم يكن بالمستطاع التمييز إذا ما كان الشخص السائر هو أم تلك الصور المجهولة. ربّما شعر، وتلك الصور تمرّ بجانبه، وهو ينظر إليها، بأنّه هو الذي كان يسير.

فجأةً، تأكّد من وجود أحد بقربه. كان يعلم، وحتى قبل ذلك، بأنّه يجب أن يكون امرأةً بالتأكيد. أما أنا فوددتُ التنويه بأنّ تلك المرأة كانت عارية. لكنّه لم يعبأ بي. قبل كل شيء، استرعى نظرته كعبان صغيران لقدميّ امرأة. ولعلّ نظرته هي التي استرعت الكعبين العاريين للمرأة، فهذا غير معلوم. كان لساقيّ المرأة لون أبيض صافٍ، وعليها زغبٌ بلون أشقر. أخذ جسد المرأة يهبط،

رويداً رويداً، حتى بانت أجزاؤه الأخرى، أيضاً، بوضوح. إنّ تكوين جسدها الكامل كان يدلّ على أنّها امرأة أخرى لم يرها من قبل بتاتاً. لكن، كل عضو من كيانها، وكل تعبير في تلك الأعضاء كان معروفاً له جداً. لعلّها كانت مجموع الأعضاء البشرية التي مرّت بتجاربه والتي قد ترسّخ كل منها على حدة في وعيه. ولعلّها اجتمعت كلها دفعةً واحدة حتى شكّلت تلك المرأة. أنا هكذا فكّرت. لكنّه لم يعرْ أدنى اهتمام إذا ما كان يعرف هذه المرأة أم لا.

العطش كان يهلكه. وكانت المرأة قادمة تحمل بيدها صينيّة عليها ماء. وكيلا ينسكب الماء من على الصينيّة، كانت المرأة تتقصّد المشي متلوّيةً بجسدها الأبيض. شعر بالجاذبية القصوى لساقيها. فتّش بنظراته بين ساقيها البيضاوين بحثاً عن شيءٍ معيّنٍ، ولكن لم يجد. كان يبدو أنّ المرأة ترتدي الكيلوت. لكنّه ما كان ليغطّي شيئاً هناك. ورغم ذلك، لم يكن هناك شيء سوى كتلة لحم مغطّاة بالبشرة البيضاء. حينئذٍ، تأكّد من أنّ الشيء الذي تمنّاه في حياته لا وجود له في الواقع. لكنّه بحث بلا كلل. كان يؤمن إيماناً قاطعاً، في ما مضى، بأنّ ذاك الشيء موجود. كان معروفاً بالنسبة له، وحتى لو لم يرَه، كان معروفاً كعتبة حياته، كما لو يراه على الدوام، في كل دقيقة، في كل ثانية، والآن لم يوجد ذاك الشيء المعروف. إنّ الحياة، منذ وجدت، وهي على ذمّة البشر لمعرفة ما هو مجهول واستقرائه.

كانت المرأة لا تني تضحك، أمامه، بضحكاتها الغريبة، وإنّما المعروفة جداً. ودّ أن يلمس جسد المرأة. لكنّ جسدها كان بعيداً للغاية. لم تطله ذراعاه..؟ المشاهد التي حوله هكذا تداخلت فيما بينها، امتزجت ببعضها البعض، تغلغلت، حتى غدا لا يمكن تمييز أيّ شيء. كان متأكّداً من أنّه يسبح طافياً في أماكن مجهولة، فحسب. فقد كان أسير فكره. أحسّ بأنّه يتمنّى أن يكون له زوجة جميلة مثل تلك المرأة، وولد جذاب. كان يسير بهذا التفكير، مطأطئاً برأسه نحو الأسفل، حينما رغب بأن يرفع رأسه متطلّعاً إلى الأمام. بدا له أنّه

رأى في الأمام امرأةً تذهب قدماً وهي تقود بيدها طفلاً صغيراً. إنّها كانت تلك المرأة نفسها. كان واضحاً أنّها هي.

تبع تلك المرأة. كانت المرأة متناسقة الجسد للغاية. وبكلّ كيانها كانت تناديه، داعيةً إياه لكي يتبعها على الدوام. كان بودّه كثيراً أن يحصل على مثل تلك المرأة. لباسها الضيّق على جسدها كان أنيقاً جداً. وبهذا، فكلّ الجمال التابع لجسدها قد عبّر عن نفسه دفعةً واحدة.

كان رجلاً لم يتزوّج قطّ. ولكن، بدون سبب، حسب المرأة زوجته، ثم سرعان ما خطر بباله أنّه ليس لم يجرّب الزواج وحسب، وإنّما لم يقترب حتى من جنس النساء. إنّ المرأة التي تسير أمامه كانت واضحة جداً. كانت امرأة بالفعل.

فكّر بأن يلحق بها. وكذلك المرأة كانت تبطئ خطواتها، تدريجياً، كأنما أرادت أن يلحق بها. كلّما أبطأت المرأة خطواتها، كانت خطاه هو أيضاً تتباطأ أكثر. أدرك أنّ ساقيها البيضاوين اللتين تبدو عروقهما بوضوح فوق الخفّين توقّفتا عن السير. كانت المرأة تتطلّع نحوه. حملق، مذهولاً، في فمها المفتوح على وسعه من الضحك. أخذ وجهها الجميل يذوب. بدا كأنها تغلي من الداخل أو ستسيل ذائبة. والضحك كان يفيض ملطّخاً باللعاب بين أسنانها أو ممتزجاً به. كانت أعضاؤها كلّها بلا تعبير كأنها جامدة. كان هناك تعبير واضح في عينيها وأسنانها، وحسب. فعيناها كانتا تجرحانه بالتحديق إليه بكراهية، وأما اللعاب الممطوط كالأوتار بين أسنانها العليا والسفلى فكان يلمع بوحشية مع الضحك. لم يكن لديه القدرة الكافية للاستمرار في النظر إلى هذه الحالة. وإذ شاهد هذا الضحك، فقد شعر بالتعب الشديد. لكن، لا يدري لماذا، أراد أن يظلّ ينظر إليها. كان يفتّش فيها بنظراته عن شيء ما. لعلّ ما كان يفتّش عنه هو الأنوثة بين تلك التعابير للمرأة، لأنّه كان يتلهّف لرؤية تعبير أنثويّ خاصّ بالنساء يتّجه نحوه. إنّه كان قد شاهد تعابير فاتنة لدى النساء، تعابير لا عدّ لها

خاصة فقط بالنساء، إنّما شاهدها كلّها وهنّ يتحدّثن مع رجـــال آخريـــن أو يمارسن الحب معهم. أجبرتُهُ أنا على أن يبحث بين التعابير لدى هـــذه المـــرأة، أيضاً، عن قوّة فاتنة، كما حاولت إقناعه بأنّها موجودة. لكـــن، لم يعبـــأ. لم يتفرّغ تفكيره لهذا.

كان يظنّ أنّه أكثر الرجال حزناً في العالم، كما كان يفتخر بذلك. لعلّ هـــذا هو الأمر الوحيد لافتخاره. كان يشعر بالمتعة وهو يتذكّر واحدة تلو الأخـــرى، وبفرح غامر، التجارب اليائسة لمأساة ظمأه وحبّه تجاه النساء. إنّها القدرة الـــتي كان يتحلّى بها حيث لا تتوفّر، أبداً، لدى أحد غيره. فلو توفّرت قدرة كـــهذه في كلّ إنسان لما بقي لها أي أهمّية. كان يتمنّى أن يكون إحساسه بالحبّ غريبـــاً للغاية ومقرفاً أيضاً. فالحبّ الهمجيّ، الذي عاشه لبضع مرّات، جعله يكتســـب لنفسه تلك النفسيّة الغريبة، وكان يعتبر هذه النفسيّة الغريبة، التي يتّصف بهـــا، نفسيّة خاصّة بالفنّانين أو نفسيّة خاصّة بالرجال العظماء. وما عداه، في رأيـــه، ليس هناك في العالم من شيء يمكن الاستمتاع به، وكان مثل هذا الإحســـاس أكثر جمالاً ولذّةً حتى من النساء.

أحسّ بأنّ المرأة الواقفة أمامه تودّ قول شيء ما. كانت هيئتها تدلّـــه علـــى ذلك. فلقد جعلته نفسيّته الغريبة و"حبّه الأكثر حزناً في العالم" يلاحظ أيضـــاً، هكذا، بدقّة، دلالةَ التحوّلات الصعبةَ تمييزها في ملامح الآخريـــن، متعطّشـــاً بلهفة، مستنفداً الصبر.

ــ هل هذا ولدك؟

لاحظها تسأل هكذا. فكّر بأنّ المرأة سألته، بالتأكيد، هذا السؤال. لأنّه كان يتمنّى ذلك. لذا، بطريقة ما، أبدا لها إشارة الإيجاب. ما دام ذلك الطفل لـــه، هكذا اعتبر تلك المرأة الجميلة، التي تمسك الطفل بيده، زوجته أيضاً.

هل ذهب بسرعة أمام المرأة أم المرأة جاءت أمامه، على كلٍّ، اكتشف أنّـــه يقف ممسكاً يد الطفل. فقد ناولته المرأة، الطفل.

والطفل كان جذّاباً للغاية. لاحظ أنّ حبل السرّة عند الطفل لم يُقطع بعد. أجل، فقد وُلد هذا الطفل قبل أوانه إذاً، هكذا فكّر. لأنّ الطفل كان يبدو جنيناً لم ينضج بعد في رحم امرأة لم تتجاوز بحمله الشهرين. بالرغم من ذلك، سُرّ من قلبه معتقداً بأنّ هذا ولده. ظنّ أنّه قد رأى هذا الطفل من قبل، لعلّه رآه من قبل حقّاً، وعلى الأقل، رأى صورة ملوّنة تشرح تكوّن الجنين. فقد كانت مثل هذه الصورة معلّقة على حائط القاعة التي كان يدرس فيها. التفت وراءه قلِقاً لأمر ما، ورأى أباه القادم باتّجاهه بابتسامة غريبة، ففزع. لأنّه لم يكن متزوّجاً أصلاً. وحتى إنّه لم يقترب في حياته من النساء، فكيف يكون له ولد والحالة هذه؟

ركض وراء المرأة حاملاً بيديه الطفل. استدارت المرأة متجهّمة بهيئة رهيبة للغاية. لم يعرف ماذا يقول. لأنّه كان يتمنّى أن يكون ذاك الطفل ولده. ولكن، كان أبوه قادماً وراءه. ما كان أبوه ليرغب أبداً بأن ينجب ابنُه ولداً بالحرام. لأنّه ابنه الحقيقيّ بالطبع. إذن، يجب أن يكون حفيده، أيضاً، حفيداً حقيقيّاً.

ــ لـــ..ما..ذا تذهبين تاركةً ولدكِ.. لي؟..

قال، مادّاً ذراعيه نحوها بالطفل الذي حمله عن الأرض. عندئذٍ، فقط، شاهد الشيء الذي يحمله بيديه لم يكن غير دمية من طين. فهو، عندما كان طفلاً صغيراً، كان يلعب مع إحدى البنات في حارته لعبة الزوج والزوجة. في ذلك الحين أصبحت هذه الدمية الطينيّة ولده هو. إذ صنعاها هما معاً. في ذلك الوقت، أيضاً، أقبل أبوه حيث يلعبان، ثم أثنى عليه بأنّه صنع دميته بشكل جيد، ووضعها فوق حائط عالٍ لكي تجفّ تحت الشمس. منذ ذلك الحين وهو ما يزال يعتقد فعلاً بأنّ طفلاً مصنوعاً من الطين سيصبح طفلاً حقيقيّاً بعدما يجفّ تحت الشمس. إنّما ذاك الطفل من الطين لَمّا يجفّ بعد إلى الآن. فقد بقي، كنتاجٍ لحلمٍ دائم، فوق ذلك الحائط، يتشمّس تحت حرارة لا تنتهي.

ــ أنتَ لا تفكّر بأنّ لك زوجة.. ولا تتذكّر أنّ لك ولداً.. فهل تريد أن

ترفض ولدك.. يا معتوه!

بدأت تمطره بالشتائم.

لو كانت امرأته فعلاً، لأصغى لشتائمها، أيضاً، بسرور. من يدري، وربّما هي زوجته بالفعل!

في أثناء ذلك، ظهر بجانبهم اثنان من رجال الشرطة. لاحظ حينئذٍ أنّ شجاراً قد وقع هنا. كان يبدو أنّ الشجار أخذ يشتدّ أكثر من قبل. لاح في رأسه أحد الأعداد، لامعاً حيناً ومعتماً حيناً آخر، يروح يمنةً لحظة، يغدو يسرةً لحظة أخرى، يتجوّل، هناك، غير قادر على اتّخاذ هيئة شاملة متكاملة أو على الدخول إلى الحارة. فمهما حاول لم يستطع تمييز هذا العدد المتجوّل في رأسه حيث لا يترك له فرصة أن يمسك به. كان يظنّ بأنّه لو عرف كميّة ذاك العدد، عندئذٍ، لاستطاع النجاة من وضعه الصعب.

أراد أن ينظر إلى أبيه. بالكاد استطاع أن يجد أباه بين حشد المتفرّجين، المتجمّعين حولهما. كان أبوه يضحك فاتحاً فمه على وسعه. كما كان يبدو، في الوقت نفسه، أنّه يتثاءب، وليس يضحك.

ــ هذا.. ليس ولدي! إنّ هذه المرأة تتّهمني زوراً وبهتاناً.. تريد أن تنقذ نفسها بأن تجبر عليّ طفلها الذي ولدته بالحرام!..

كان يودّ أن يسترسل بالحديث. لكنّ لسانه عجز عن النطق.. المرأة وحدها كانت تثرثر دون توقّف. كان كلامها غير مفهوم نهائيّاً. عندئذٍ، أحسّ بأنّها كانت تتكلّم كالمشعوذة، ناطقةً بالسحر، محرّكةً كل الأجزاء من جسمها.

ــ بعدما أنـ.. .. ـجبتَ طفـ.. ـلا

مضرماً في صلبي نا.. .. .. را

فهل أنـ.. ـتَ قاتلي.. ..

.. ..

.. ..

يا.. .. يا.. ..

معتوه.. ..

ألا اقتلني.. ..

ألا اقتلني.. ..

.. ..

.. ..

أحس بأن المرأة تتكلم مفرداتها بإيقاع معين. كانت تبدو وكأنهـــا فقـــدت رشدها أو تؤدي طقوسا للتعزية. وكان الزبد يفور من فمها. جسدها يرتجـــف بوحشية، ساقاها تتخبطان.

لاحظ المرأة تختفي، رويدا رويدا، في الضباب، وتألم قلبه لهذا، كانت تولول. ركع أمامها.

ـــ حبيبتي، مولاتي.. أحبك.. فلا تكوني زوجتي.. لا تعذبيني، سأموت..

وهل تأ.. .. تيـــ.. .. ـــن

لتصلـــ.. .. ـــلي على.. .. جثماني

.. ..

.. ..

كانا يتطلعان إلى بعضهما كعاشقين في الأساطير، ويرفعان عقيرتهما بالغنـــاء المجنون.

لوح أحد رجال الشرطة بعصاه، وهددهما قائلا:

ـــ لـــ.. .. ـــمن.. ..

ينادى يا بابا

فـــ.. .. ـــهو.. ..

و.. .. لده

والشرطي، أيضا، هكذا غنى. أتى أمامه بطفل من بين الحشد وسأله:

ـــ هل هذا أبوك، أم لا؟

ـــ بابا!..

اندفع الطفل نحوه فاتحا ذراعيه كما لو رأى أباه بعد سنين من الغياب.

تذكر بطاقة هوية طالب. فسرعان ما سحب بطاقة الهوية من جيبه وتفحصها. كان قد سجل في البطاقة بوضوح كم مضى زمن منذ مجيئه إلى هذه المدينة.

ـــ لم يمر، بعد، عشرون سنة لمجيئي إلى هذه اللعينة.. المدينة، فمن أين لي أن أنجب هذا الولد. إن هذا الطفل مولود قبل أن أجيء إلى هنا.

قال، سهوا، عشرون سنة بدلا من شهرين. ورغم ذلك، لم يرغب بأن يصحح كلامه. لأن هذا الكلام، أيضا، كان صحيحا من ناحية أخرى.

تفحص الشرطي البطاقة قبل أن أعادها إليه، ثم أخذ معه المرأة شاتما إياها "يا ساقطة!.."

ليس بالإمكان التأكد في ما إذا كان الشرطي هو الذي أخذ المرأة معه شاتما أم جره الوقت من أمام المرأة مباعدا المسافة بينهما.

نجا بجلده من أن يكون ذلك الطفل له. لكن كآبة كانت تولول بألم في مكان بعيد.. بعيد.. لا يطاله نظره.

أراد الجري بأقصى سرعة ليلحق برجال الشرطة. ومهما خطى خطوة واسعة إلى الأمام، كانت تعود تلك الخطوة إلى مكانها من جديد.

حاول الصراخ بكل قوة ليسمعه رجال الشرطة قائلا: "إنها حقا زوجتي.. إنه ولدي!..". لكن صوته خرج من فمه بشكل خفيض للغاية كأنما يوشوش. وروحه كانت تعاود محاولتها للاندفاع خارج جسده.

إذ هو يرى الدمية الطينية بين يديه، فقد فزع فجأة. كان يسمع دون انقطاع صوتا يئز داخل رأسه.. وكانت يداه الممسكتان بالدمية الطينية تضغطان بقوة على قلبه.

تشينار

.١٠

أنا متأكد تماما من أنهم ما فتئوا يتربصون بي سرا على الدوام. أليس ذلـــك واضحا وضوح الشمس من وجوه أولئك الأوغاد، الطافحة باللؤم والدناءة!

لقد تظاهروا بهيئة من ليسوا لديهم علم بما يجري، كما لو لم يحدث شـــيء، وكانت ملامحهم طبيعية إلى حد يجعل الإنسان يفقد صوابه. فكلما اســتمروا في التظاهر بملامح طبيعية، كنت أزداد غيظا وأتمنى أن أسحقهم بـــين أســناني. إن رغبة، كهذه، بسحقهم بين أسناني، كانت تعبر عن الطبيعة الخاصة بـــالحيوان الكاسر التي لا تزال موجودة في. كنت أتحلى بالصبر أمامهم بحيث أتظاهر بعـدم الاكتراث. لكن، لا أدري لماذا، كنت كذلك أشبه نفسي بالأسد، الذي يمـــلأ القفص جيئة وذهابا حيث يزمجر وينتفض. كما كنت أتصور نفســـي وكـــأني أسحقهم بين أسناني، ثم أبصقهم. وفي تصوري كان يتقطر الدم البشري مـــن زوايا فمي، وكنت أعوي بصوت مفجع ورهيب كالذئب، وأنا أتطلـــع نحـــو السماء. فيما بعد، أخذ تصوري يخصب أكثر، حيث انضاف إليه ليـــل مظلـــم وجثث لا عد لها ترتمي في فوضى داخل الظلام، وقد تمزقت كل هذه الجثـــث مزقا. لكني لم أكن أحب أن أتصور هكذا، لأني، وإن كرهت الآخرين كثـــيرا، كنت رجلا طيب القلب إلى حد بعيد. كل هذا كان نابعا من عدم الســـيطرة على نفسي، للحظة، في فترة جد وجيزة، فحسب. كان ينقصني الشعور بمعـلداة الآخرين، إذ لا أتذكر أني كنت يوما في نزاع معهم على شيء. كنت أفكر منذ طفولتي أنه لا يمكن أخذ شيء من هذا العالم. لذا، لم أكن آخذ أي شـــيء إن لم يعطني إياه الآخرون. إن ماهية الكواسر هي أن تسلب شيئا مـــن الآخريـــن،

والموضوع الأهمّ بالنسبة لها في عملية السلب هذه ليس هو شيئاً ما للآخرين، وإنما أجسادهم. لم أكن أحب، أبداً، مثل هذا السلب غير البشريّ، إذ ما كان مثل هذه الرغبة بالسلب موجودةً فيّ على الإطلاق، ولكنْ، هذه أمور تعود إلى زمن بعيد جداً. ثم تغيّر كل ذلك فيما بعد. وفي النهاية، تحولت إلى رجل يعشق أكثر من الجميع أن يسلب من الآخرين أشياءهم. وإذ إني رجل يتّصف بالجبن إلى حدّ بعيد، كنت أمارس كل ذلك في الخفاء. كنت في غاية الرضى من أنني قد خُلقت رجلاً جباناً، لأني كنت أستمتع بجبني هذا. ولمّا يقتحم كياني شعور بارد ورهيب بالخوف كنت أرتاح مغتبطاً. فقد أصبحت مدمناً لهذا النوع من الشعور. وكان وسواس ذلك النوع من الشعور يعذبني على الدوام. وفاقدا وعيي بالعالم كله، كنت أبحث عن ذلك الشعور ذاته، وكما لو أنه ستنقطع أنفاسي إن لم يوجد ذلك الشعور... هذه الأمور هم كلهم على دراية بذلك! رغم ذلك يتظاهرون في هيئة طبيعية وحميميّة للغاية كما لو لم يحدث أي شيء. وفي الواقع ماذا يفكّر هؤلاء الوقحون فذلك واضح لي كالشمس!

ساعي البريد، الراكب على الدراجة، وهو ينعطف من زاوية الشارع، لمحني فجأةً، فنظر إليّ على سبيل التحية بابتسامة لا تكاد تتبين. لا معرفة على الإطلاق بيننا أنا وذاك الوغد، فأنا أعرف أنه ساعي البريد فحسب، ومن يلتفت إليه يعرف على الفور أنه ساعي البريد، وإن لم يكن قد رآه من قبل أبداً، أوليس يرتدي بدلة ساعي البريد! وإن كان مجرد معرفتي بأنه ساعي البريد يدلّ على علاقة تقارب ما، بيني وبينه، فما الفرق إذن بين أناس معروفين وغير معروفين في العالم؟ وما الحاجة، من ثم، إلى أي مقياس نميّز به بين بشر معروفين وغير معروفين! ما اسمه؟ كيف هو طبعه ونفسيّته في النهاية؟ وأين يقيم؟... فأنا لست على علم بكل ذلك بتاتاً، فكيف يمكن اعتباره معروفاً، والحالة هذه؟ لكنه ابتسم لي ابتسامة خفيفة، وهو ينظر إليّ كما لو أني أحد معارفه القدامى. فعلامَ يدلّ في النهاية أن يتصرف تجاهي ذاك السافل بهذا الشكل؟ ماذا يختبئ،

أخيراً، وراء عينيه الخافتتين، اللتين لا نور فيهما كما الشظايا الزجاجية المتّسخة على جانب الطريق، واللتين ابتسمتا لي!؟ كان مظهره طبيعياً جداً، بحيث يبدو أنه حيّاني هكذا لمجرد أنه يعرفني، يعتبرني ممن يعرفهم، ولا يمكن أن يُفهم من ذلك أي شيء آخر ذي دلالة. هم يحسّون بأنهم، عندما يلتقون بمن يعرفونه، لا يمكنهم أن يمروا من أمامه دون أن يحيّوه، فلهذا السبب، يتصرفون هكذا على سبيل الواجب ليس إلاّ. كذلك هو الآخر كان يتظاهر كما لو يؤدي الواجب فقط غصباً عنه. إنما الواضح جداً أن وراء ذلك تختبئ أشياء أخرى. إنهم على دراية بكل ما أفعل. فأنا بنظرهم رجل غريب، تدهشهم تصرفاتي، لذا، حين يلتقون بي على الطريق، يتفحصونني من جديد بإحساس لا حياء فيه، متشوّقين لكي يتفرجوا، مرة أخرى، على حالتي وأنا مرتبك للغاية، ولكنهم، خوفاً من أن أكتشف لماذا ينظرون إليّ، يتظاهرون كذلك كما لو يعرفونني معرفة قديمة. أما أنا، فبقدر ما هم يتظاهرون مطمئنّين، طبيعيين، اعتياديين، أغدو أكثر دعة...

نأت دراجة ساعي البريد عن نظري، حتى غابت بين جموع المارة. لكن دراجته المطلية باللون الزيتيّ، وكذلك حقيبته الزيتية اللون، المعلّقة على الدراجة، ظلّتا ماثلتين في نظري فترة، بحيث أثارتا غيظي واشمئزازي. كنت أظنّ أنه سيقترب، حتى يتوقف أمامي، ثم يناولني من جديد، كعادته، رسالةً أُلصقَ على مظروفها إشعار بإعادتها إلى صاحبها، وينصرف. ولكنه لم يتصرف هكذا.

كان الطقس بارداً جداً. وكانت الريح الصقيعية تُلهب الآذان كأنما تكويها بالنار. حتى خطوات الناس، الذين كانوا يسيرون فوق الأرصفة رواحاً وغدواً، أخذت تتباطأ في البرد أكثر من قبل، فهم، خائفين من الانزلاق فوق الجليد، كانوا يمشون مكترثين. لم تكن خطى العابرين سريعة كما هي في الصيف. وإن كان يبدو من ملامحهم أنهم يستعجلون الوصول إلى مكان ما، فإنهم لم يكونوا يستطيعون أن يغذّوا خطاهم. وحتى بعضهم، وهم يركضون، كانت حركاتهم ليست على ما يرام. كان يظهر أنهم يتقدمون إلى الأمام بصعوبة كبيرة. وكان

يبدو أن كل شيء في الشارع، السيارات... وجميع الناس بدأوا يتجمدون في البرد كما لو سيتثبتون في مكانهم، في هذه اللحظة، حيث لا يقدرون على الحركة كالتماثيل.

عبرت الشارع متجها نحو موقف الحافلة، ففي تلك اللحظة بالذات، كادت إحدى السيارات أن تصدمني؛ إن السيارة، وهي تضغط بقوة على المكابح، حالما توقفت مائلة على جنب، بعد أن تزحلقت فوق الجليد، توقفت سيارة أجرة أخرى بعدما قطعت محتكة بها. لعل السيارة فقدت مساحة كبيرة من الدهان جراء الاحتكاك، هكذا ظننت؛ وفيما أفكر أنا بذلك، نزل السائق من السيارة وركض صوبي، ثم أمسك بي من عنقي. كان رجلا طويلا وضخما، وحين نظرت إلى يده، التي كانت تمسك بعنقي، بدت لي ضخمة للغاية، ولم أستطع أن أنجو من قبضته، وإن حاولت ذلك متخبطا، كما لو أني دجاجة أمسكت بها من رجليها. شتمني طويلا بكلمات بذيئة، وبعد ذلك، جرني إلى سيارته وأراني الجزء الذي تضرر بسبب الاحتكاك. بدا لي ذلك مضحكا جدا، لأنه ما كان هنالك داع أبدا، لكي يكلف نفسه عناء جري إلى الجهة الأخرى من السيارة ليريني، لأني لا أستطيع فعل أي شيء لسيارته، وإن كانت قد فقدت دهانها، فليتني أستطيع طليها! كما أنني لست بدهان.

— هل رأيت يا لوطي!؟— صرخ بي.

ما هي إلا لحظات، حتى تجمهر الناس حولنا. كانت عيونهم كلها محدقة بي. وحتى هم، أيضا، كانوا يتطلعون نحوي كأنهم يعرفونني. لقد أرادوا أن يتفرجوا هنا، مرتجفين، بغض النظر عن البرد الشديد. وبالرغم من أن نظراتهم كانت تدل بوضوح على مكامن مشاعرهم، لكني اعتبرت هذه النظرات لا تختلف، أبدا، عن نظرة ساعي البريد ذاك. إنهم قد اعتادوا التفرج على حالة الآخرين البائسة، أما أنا فلم أبال بالسائق، وهو يمسك بي من عنقي، ولكنني كنت أستشيط غيظا من نظرات الآخرين تجاهي. فليتصرف السائق معي هكذا، متهما

إياي بأني تسببت بذلك الضرر لسيارته ، ولكن ما لي وللآخرين؟ لماذا يحدق الآخرون بي هكذا؟ ترى من منهم يعرفني في النهاية؟ فهم، كما لو يعرفوني جميعا، كانوا ينظرون، واقفين، وهم مهتمون بتطور الحدث، وبي.

بعدما حضر شرطة المرور وتحققوا من الحادث، غادرت المكان. أثناء ذلك، شاهدني كثير من الناس. كان الهدف من وقوفهم هنا، ومن نظراتهم تجاهي واضحا بالنسبة لي. لعلهم سيتعرفون علي هنا جيدا، ثم، عندما يصادفونني في أماكن أخرى، سينظرون إلي مبتسمين ابتسامة خفيفة كما ساعي البريد. والأمر الذي جعلني أغتاظ أكثر من غيره، هو أن أحد الأوغاد تدخل فيما بيننا، منحازا لصالحي، كما لو أنه أحد أقاربي، ثم نزع يد السائق من عنقي متوسلا إليه أن يتحلى بضبط النفس، وأن يسامح رجلا مسالما مثلي. كيف يعرفني ذاك الوغد، ثم من أين يعلم أنني رجل مسالم؟ أما أنا فلم أره في حياتي، هذا يعني أن كل واحد منهم لا يني يتربص بي خفية.

.٢.

"طق... طق... طق..." طرق الباب.

كان ساعي البريد، الذي يحمل بيده حقيبة زيتية اللون، ينتظر أن ينفتح الباب في ردهة هذا المبنى القديم، التي تعطل مصباحها، ولا يدخل إليها ضوء الشمس جيدا. رفع بسبابته مقدمة قبعته الرسمية، ثم طرق من جديد هذا الباب الذي لم يطرقه أحد سواه أبدا، والذي ما وجد إلا ليطرقه هو نفسه، وحسب.

حينما يدلف ساعي البريد إلى هذا المبنى، ويقف أمام هذا الباب نفسه، كان يحس، دائما، بأن الزمن قد توقف في مكانه. إذ كان في وعيه يبدأ مفهوم الزمن في فوضى كاملة. حتى إنه لم يكن ليستطيع التمييز مطلقا بين الأمس واليوم والغد. كان يطرق الباب كعادته، حيث يظهر وجه صاحب البيت، المجرد من التعبير نهائيا، الجامد كالتمثال، ويتطلع نحوه كعادته، بعدما ينفتح الباب، منتظرا

منه أن يقول شيئا، أما هو، فكعادته، يمد إليه يده بالرسالة. إن الرسائل كلـــها، كالعادة، رسائل أعيدت إلى صاحبها بسبب الخطأ في العنوان. والأمر المزعج إلى أبعد الحدود أكثر من غيره، هو أنه حتى الظروف التي توضـــع داخلـــها هـــذه الرسائل متشابهة، كذلك الخط الذي كتب به على المظروف متشابه، كمـــا أن اسم المرسل إليه متشابه. كان موظفو البريد يتعرفون على مثل هذا المظروف من أول نظرة. وكان خط هذا الرجل متميزاً بشكل استثنائي عما هو للآخريـــن. فساعي البريد الشاب كان يشبه هذه الرسائل بصاحبها كثيرا، إذ كان يفكـــر بأنها فظة ومنفرة كصاحبها، وما كان ساعي البريد ليستطيع أن يتخيـــل هـــذه الرسائل بمنأى عن كاتبها أبدا، كما لو أن أحدا غير ذلك الرجل ليس بمقـــدوره كتابة مثل تلك الرسائل.

بعد أن طرق ساعي البريد الشاب الباب مرة أخرى، انفتح الباب، ولاحـــت هيئته التي لا تتغير أبدا، حيث وقف صامتا يحملق بساعي البريد بنظرة متســـائلة. كان ساعي البريد الشاب يرتبك دائما أمام نظراته، ويحس بأن عليه أن يعتـــاد على تحيته والسؤال عن أحواله، لأنه يأتي إليه بشكل شبه يومي، فقـــد أصبـــح لظهور ساعي البريد الشاب أمام بابه زمن ربما يقارب السنتين، أو قـــد تجـــاوز تلك المدة، فلا أحد بمقدوره أن يتأكد كم مضى من الزمن. ولأنه لا يزال يلتقي به منذ سنتين أو ثلاث بشكل شبه يومي، كان يحس بأنه لا يجوز ألا يتبادل معه التحية والكلام في كل مرة يراه فيها. وكان الشاب يشعر دائما بالامتعـــاض في كل مرة يفكر فيها بأنه سيلتقي من جديد ذاك الرجل. فمثل هذا اللقاء كـــان يجعل الشخص يتشاءم كثيرا. ورغم أن تاريخ هذا اللقاء يمتد عامين أو ثلاثـــة، لكن ساعي البريد الشاب لم يستطع أبدا أن يتعود عليه. كان يتمنى أن ينتـــهي هذا اللقاء بسرعة لكي ينجو من وضع مزعج كهذا، حيث، وإن كان اللقـــاء يحدث يوميا، ما كان يحيي أحدهما الآخر، إذ يجد الشخص نفســـه في وضـــع حرج. إذا توقفت يوما ما رسائله ذات العنوان الخاطئ والمستمرة على الـــدوام،

عندئذ فقط، سوف يختتم مثل هذا اللقاء الكئيب، ثم، بعد مضي فترة وجيزة، سيتحول ذاك الرجل إلى شخص غير معروف، حيث يختفي بين قائمة البشر غير المعروفين في العالم، الذين لا عد لهم. لكنه، وكأنه يصر على موقفه المزعج، ما فتئ يبعث برسائله إلى العنوان الخاطئ. كان يخال إلى الإنسان أنه من وراء إرسال مثل هذه الرسائل ينوي لعبة قذرة، لا معنى لها على الإطلاق، ولا هدف لها سوى إحضار ذلك الفتى ساعي البريد أمام باب منزله دائما، والضحك على اللحى. وحالما يراه ساعي البريد الشاب، في كل مرة، كان يتطلع إليه راسما في وجهه ابتسامة لا تكاد ترى. كان في نظره أن هذه الحركة تعتبر أيضا نوعا من التحية، كما أنها ليست كذلك. فبهذه الطريقة فقط، كان بإمكانه التخلص من وضع حرج حيث لا يكون حيى رجلا يلتقي به على الدوام، كما يمكنه أن يتخلص من الحرج إذا لم يرد على "تحيته" شخص لا معرفة بينهما.

رسم ساعي البريد الشاب على وجهه ابتسامة خفيفة. ولم تستطع هذه الابتسامة أن تحدث أي تأثير في ملامح ذاك الرجل.

ـــ رسالتك عادت، فقد كتبت العنوان بشكل خاطئ.

كان ساعي البريد الشاب ينطق فقط بتلك الكلمات، حيث كانت هذه الكلمات تلفظ بالنبرة ذاتها كما لو سجلت في شريط المسجلة، إذ لم تكن تنضاف إليها كلمة أو تحذف منها كلمة، وهكذا كل يوم.

أما هو، فما إن يتناول الرسالة حتى يدخل البيت، مطبقا بقوة ذلك الباب، الذي فقد طلاءه واتسخ. لم يكن يتفوه ولو بكلمة، حتى إنه ما كان ليلقي نظرة على المظروف.

كم كان ساعي البريد الشاب يتمنى أن يعرف لمن يكتب ذاك الرجل رسائله بالضبط. فهذه الرسائل، التي لا يستلمها صاحبها أبدا، لماذا لا يتوقف ذاك الرجل من كتابتها يا ترى؟ أم إنه لا وجود في هذا العالم لشخص يستلم تلك الرسائل؟

كان ساعي البريد الشاب، حالما يغادر الردهة المظلمة، يشعر وكأنه خـــرج لتوه من قصر غامض للزمن. وكان ينتابه إحساس بأنه، إذا لم يخرج من تلـــك الردهة، فسوف يحبس إلى الأبد في ذلك القصر الغامض للزمن، حيث يدور أبـد الدهر ضمن الدائرة المتشكلة من تلك الردهة نفسها، من ذلك الوجه نفســـه، الجامد بلا تعبير، والرسائل العائدة بسبب خطأ في العنوان.

سار ساعي البريد الشاب على الدراجة مارا بين الأبنيـــة حـــتى خـــرج إلى الشارع الرئيسي، ثم انضم بين الدراجات الســـائرة علـــى جـــانب الطريـــق والسيارات، حيث امتزج بها وغاب عن الأنظار. لقد أحس قبل قليل، وهـــو في طريقه إلى الشارع الرئيسي، بأنه، ولا يدري لماذا، لم يغادر هذا المكان إلا ليعود من جديد، وفي جعبته رزمة أخرى من رسائل ذاك الرجل، العائدة إليه لخطـأ في العنوان.

.٣٠

بين عدد لا نهائي من الصور القابعة في ذاكرتي، استطعت أخـــيرا أن أمـــيز وجهها بشكل أولي. كانت صورا لأشخاص، غير معروفين أبدا، تتحـــرك دون توقف وهي تحاول أن تبتلع تلك الصورة، الضعيفة جدا، لكن الأكثر جاذبيـــة، الخافتة جدا، لكن الأكثر قوة، التي لا تني تتجسد. كنـــت أحـــاول بشـــكل مستميت أن أخرج تلك الصورة من القاع الشاسع المظلم لذاكرتي، إلى النور.

كانت صورتها القابعة في ذاكرتي تنظر إلي ضاحكة بابتســـامة ذات دلالـــة. وعيناها، رغم أنهما بجفنين مبطنين، كانتا واسعتين جدا. ويمكن أن يكون هناك شامة بجانب أنفها، أجل شامة، وربما فوق ذقنها، ربما على خدها، على العمـــوم هناك شامة في مكان ما من وجهها، ليست واحدة وإنما أكثر من شامة... هـــذا فقط ما تبقى من صورتها في وعيي. لعل العينين ذات الجفن المبطـــن لشـــخص آخر، والشامات لشخص ثالث، لعلني جمعت العلامات الفارقة لبضعة أشـــخاص

في ذاكرتي إلى أن ركبت وجها لشخص واحد... لست متأكدا من ذلك.

إن ظهور تلك الصورة، فجأة، في ذاكرتي، أمر حدث قبل عدة سنوات من الآن، ففي ذلك اليوم، شعرت بأنني غدوت رجلا مختلفا جراء حس دافئ لم يكن موجودا في كياني من قبل أبدا، وقد أصبح لهذا سنتان ربما، وربما سنتان ونصف أو ثلاث سنوات، متى كان ذلك بالضبط فلا أتذكر بوضوح. كان قد مضى زمن طويل لم أحس خلاله بشيء دافئ في كياني كما في ذاك اليوم. وربما مضى ثلاثون عاما... فقد استطعت أن أتذكر، فقط في ذاك اليوم، أن في الكيان الإنساني مثل هذا الشعور أيضا، كنت قد نسيت تماما أن في العالم شعورا كهذا أصلا.

في ذلك اليوم، حين فاجأني في كياني ذلك الشعور، الذي ودعني منذ طفولتي، استحوذ علي الارتباك، و لم أعرف أبدا ما الذي علي القيام به. حتى إنني لم أعرف كيف أستمتع في النهاية بذلك الشعور اللذيذ. لأني، منذ سنين عديدة، قد اعتدت على التلذذ بشعور بارد كالجليد. إن ما هو باستطاعته، أكثر من غيره بين تلك المشاعر، أن يجعلني أستمتع إلى أبعد الحدود، كان هو الشعور بالخوف. إذ، لما يرتجف كل جسدي بقوة تحت تأثير الخوف الشديد، كنت أنتشي من الفرح كما لو أني فقدت رشدي. ترى، إلى أية مصائر سيقودني وسواس هذا النوع من الشعور! لم أكن أفهم، مطلقا، لماذا أنتشي إلى هذا الحد بالشعور بالخوف، الذي ينبعث في كياني، حيث تنقبض على نفسها كل الخلايا الموجودة في جسدي، وتشتد دقات قلبي، ويتصبب جبيني عرقا باردا، وترتجف ركبتاي. كنت أحاول الهروب من هذه المتعة، الغريبة من نوعها. ولكني، كلما حاولت انتشال نفسي منها، غرقت عميقا في وحلها أكثر، حتى وصلت في النهاية إلى وضع ليس بمقدوري أن أنقذ نفسي أبدا. فقد غدوت عبدا، تماما، للأحاسيس المختلجة في كياني.

كانت تنظر إلي ضاحكة. فضحكتها هذه كانت تشعرني بأنها تبشر بأشياء

غامضة. ففي حينه، لم تكن باستطاعة تلك الحالة التي هـــي عليـــها، حيـــث تضحك، أن تحتل مكانة بهذا القدر من الأهمية في قلبي الطفولي. ولم أحس أبـــدا في ذلك الحين أن تلك الحالة كانت قيمة للغاية، لأني كنت لا أزال صغـــيرا في حينه، فقد ظننت أنها أولى الضحكات ذات الدلالة، التي لا عد لهـــا. كـــان في نظري أن فرصة الحصول على تلك الضحكات وتلك النظرات المبتسمة كثـــيرة للغاية. لذا، لقد تركتها تمر بدون أن أهتم أدنى اهتمام. أما في تلك الأيام فقـــط، وبعد مرور سنين عديدة، فقد انتهيت إلى إحساس بأنها كانت آخـــر فرصـــة بالنسبة لي، ولم أكن قد أحسست بها حتى ذلك الحين.

في ذلك اليوم، حين قفزت إلى ذاكرتي على حين غرة، كنت ذاهبا إلى العمـل وأنا أسير ببطء على الرصيف. توقفت أمام العجوز، التي كانت تروح وتغـــدو على الرصيف وهي تبيع الجرائد، ثم أخذت أقلب باهتمام الجرائد المعروضة على يدها، وحتى تلك الموضوعة داخل حقيبتها. كنت أبحث دائما بين صفحـــات الجرائد عن صورة وضعت ضمن إطار أسود. لكن تلك الصورة مـــا كـــانت لتطبع أبدا، هكذا، ودون أن أشتري ولو نسخة من تلك الجرائد، كنت ألقـــي نظرة مشفقة على تلك العجوز المسكينة بائعة الجرائد قبل أن أرحل. فهي، رغم معرفتها جيدا بأني لا أشتري ولو واحدة من جرائدها، كانت تتوقف من الســير حين أصل أمامها، وتنظر إلي وأنا أقلب الجرائد.

لست أدري، أبدا، ما الذي أثار في الذكريات، في ذلك اليوم، حتى جعلـــني أتذكرها بشكل مفاجئ. ولكني أتذكر بكل وضوح أني تســـمرت فجـــأة في تقاطع الطرق، مع هذا الشعور الذي تبين في على حين غـــرة. في البدايـــة، لم أستطع التأكد حتى مما كنت قد تذكرته. بعد ذلك، بكثير من المشقة، بـــدأت في النهاية أعيد تشكيل صورتها الدافئة والرائعة تلك، في خرائب شاسعة لذاكـــرتي. إن تشكل تلك الصورة بشكل مكتمل ونهائي أمر حدث بعد عدة سنوات مـــن ذلك. ومن أجل أن أشكلها في هيئة مكتملة جمعت كل الأحاسيس المتفرقـــة،

التابعة للنساء والحنان الأنثوي، التي كانت في وعيي. ولأن هـــذه الأحاســيس البدائية جدا والمتفرقة لا تكفي أن أشكل صورة امرأة مكتملـــة، فاســتغرقت العملية زمنا طويلا.

ـــ من أنت في النهاية؟ـــ سألتها في خيالي.

ـــ من أنت في النهاية؟ـــ سألتها في أحلامي.

كانت مجهولة للغاية في تداعياتي. فهي كانت تظهر في أحلامي كظل يلمـــع في الماء الجاري في واد مظلم، كخط متعرج لا يفتأ يتغير، ثم تغيب من جديـــد. كانت تنظر مبتسمة بعينيها ذات الجفن المبطن. ولم يكن في حلمي أي شـــيء سوى عيونها تلك. كان يبدو لي كيانها، أجزاؤها الأخرى عدا عينيـــها، ظـــلا أسود في حالة مجهولة.

في ذلك اليوم، قبل سنين كثيرة، وبعد الظهر، كنت أستعد لدخول الصـــف حزينا ومحبطا. وكنت آنئذ طالبا في المدرسة الإعدادية. لقد وقع رغيف خـــبز صغير مصنوع من طحين الذرة كان داخل حقيبتي في ماء موحل أسود لســـاقية كنت أقفز فوقها وأنا ذاهب إلى المدرسة صباحا. كنت قد وضعته في حقيبـــتي بكل عناية، ولأنه صغير جدا وقع مع قفزة واحدة من فتحة الحقيبة بالرغم مـــن أنها كانت محكمة الإغلاق بكل الأزرار. كان الرغيف بحجم لقمة واحـــدة. ولكننا حين نأكله لم نكن نبلعه بلقمة واحدة، وإنما على العكس من ذلك كنـــا نضعه أمامنا فترة من الزمن ونحن نحدق إليه، ثم نجزئه إلى عدة قطع كما لو أنـــه رغيف كبير، وبعد ذلك نشرع بأكله. كنت أمضغ اللقمة طويلا قبل أن أبلعها. فبهذه الطريقة كان لنا أن نحس وكأننا نأكل رغيفا ضخما، ونستطيع أن نمنـــح أنفسنا شعورا بالشبع.

بعدما أحسست بأن الرغيف قد وقع، ركضت لألتقط خبزي الـــذي كـــان يسبح على الماء غارقا فيه حينا وطافيا عليه أحيانا أخرى، وقبل أن ألحـــق بـــه لألتقطه جرفه الماء عبر المنفذ إلى داخل إحدى الحدائق. فما إن دخلت وراءه إلى

الحديقة وأنا أحبو في الماء عبر المنفذ حتى رأيت أمامي كلبا ضخما مرقطا. وكان ذلك الرغيف في فم الكلب. فقد التقط الكلب الرغيف من الماء قبلي، وحين رآني هددني مزمجرا. فكرت بأن أسترد ولو نصف الرغيف، وأن لا أطعمه إياه، ولكن الكلب فر هاربا دون أن يتركه لي. والأمر الذي لم أستطع أبدا نسيانه حتى الآن هو أنه حتى ذاك الحيوان الذي هرب بنصيبي منع نفسه من أن يبتلع ذلك الرغيف بلقمة واحدة.

كل المصائب بدأت بسببه. ليس ذلك أنني فقدت الخبز فحسب. فلقد بشر ذلك بجميع المفاجآت التعيسة التي لحقت بحياتي بعد ذاك الحادث فقط.

ـ للأسف، لقد عاكسني الحظ منذ الصباح الباكر! ـ قلت. فأنا كنت مقتنعا تماما برأي يقول إنه إذا فاجأك النحس في الصباح تأتي الأمور كلها على غير ما يرام حتى المساء. وحتى إن هذا الرأي كان قد أصبح من آرائي الشخصية. وكذلك أحيانا كنت أظن أنه قد تم التأكد منه عبر تجاربي الحياتية ثم شاع بين الناس. وأحيانا أخرى، كنت لا أعرف حتى أنا نفسي إن كان حكما تم استخلاصه من واقعي الشخصي أم أني تبنيته لنفسي مقتنعا به بعدما سمعته من الآخرين.

ما إن وصلت إلى المدرسة حتى نظرت مستغربا حين شاهدت الأولاد يلعبون بفوضى صاخبين خارج قاعات الدرس. كنت قد تأخرت قليلا إلى المدرسة في ذلك اليوم. ففي البداية، سررت بأنني نجوت من معاتبة المعلم لتأخري حين ظننت بأنه لما يحضر إلى القاعة بعد، ولكن الوضع كان عكس ذلك تماما. فليس من هم في صفنا فقط، وإنما جميع تلاميذ الصفوف الأخرى كانوا قد أقاموا المدرسة بشغبهم و لم يقعدوها. وبعد ذلك، عندما عرفت من الآخرين أن المدرسة أعلنت وقف التدريس إلى أجل غير مسمى، ارتبكت كما لو سقط على رأسي دلو كامل من الماء البارد، فتسمرت في مكاني مثل خازوق دق بالأرض. سألت الجميع واحدا تلو الآخر لكي أسمع من أحدهم عبارة "ليس

كذلك" آملا أن يكون هذا الخبر كاذبا، ولكني لم أجد أحدا ينفي ذلك.

يئست كثيرا. لقد كنت طالبا كسولا جدا في الدراسة. كان كل الطلاب الكسالى مسرورين بأنهم نجوا من الدراسة. منهم من كان يصفر، ومنهم من كان يتلو بيتا من الشعر بكلمات بذيئة. واعتقدوا أني أنا أيضا قد سررت. وربما لم يكن هناك غيري ممن حزنوا ذلك اليوم على إقفال المدرسة. كذلك بعض الأولاد الساكنين في المدينة حزنوا قليلا، لأن المدرسة بالنسبة لهم كانت ساحة جيدة للعب فيها متجمعين. والآن، عندما تتوقف الدراسة، سيضطرون للذهاب إلى البيوت مناديا بعضهم بعضا للتجمع في مكان واحد كي يلعبوا. وأما إذا منعهم آباؤهم من الخروج للعب فلن يستطيعوا مغادرة بيوتهم مهما نادى المنادي أمام الباب.

تجسدت أمام عيني الوجوه المرعبة لآمري الريف. فلما كنت أشاهدهم يقودون الآخرين إلى العمل تحت الضرب والسباب، كنت أفرح لكوني لست واحدا من هؤلاء. وها أنا الآن أيضا ينتظرني سباب أولئك الآمرين والعمل الشاق.

أمضيت الظهر وأنا جائع. كما أننا حتى في الأيام الأخرى كنا عادة نمضيه جائعين، لأن تلك القطعة من الخبز لم تكن تسد الرمق أبدا. لقد نفد صبري أمام الجوع فأخذت أشرب الماء العكر الجاري في الساقية، وأنا أغرفه بين كفي، أملا في أن يسكت الجوع ولو قليلا. فقد أخذ بطني يقرقر. وعندما قمت وبدأت أسير أخذ بطني يرجرج فيما الماء في المعدة الفارغة يصدر صوتا وهو يهتز.

ظللت واقفا دون أن أغادر أملا فيما إذا كان سيتغير الوضع بعد الظهر، عندئذ اتجهت نحو فناء المدرسة رافعا بصعوبة قامتي المثقلة بالماء الذي ابتلعته كثيرا من الساقية التي كانت تعبر بمحاذاة سور المدرسة الخلفي. كان الماء الذي ابتلعته جد كثير، فتقيأت حالما مشيت بضعة خطوات. فعندما شاهد ذلك

أحدهم في الطريق لم يتمالك نفسه من الضحك.. واصلت السير دون أن أتكلم. ما زلت أتذكر كما لو حدث للتو كم كنت في ذلك اليوم شبيها بدن مليء بالماء. حتى إنني أستطيع أن أستحضر في ذاكرتي بكل دقة ووضوح جميع المعلمين الذين صادفتهم ذلك اليوم في طريقي إلى الصف، وحتى حالاتهم النفسية في ذلك الحين. تتبين تلك المشاهد أمام ناظري بكل صفاء وكأنها لا تزال إلى الآن متجمدة هناك بالهيئة نفسها، وتحتفظ بها في مكان ما ولا تتغير إلى الأبد. ففي ذلك اليوم بالذات، لقد رأيتها، ورأيت ابتسامتها وهي تنظر إلي بنظرة ملؤها الدلالة والإيحاء. إن كل الأشياء التي ليست مهمة بالنسبة لي تظهر في وعيي كأنها ماثلة أمام عيني، لكن تلك الفتاة وحدها مجهولة للغاية.

حتى الآن في ذاكرتي، فقد حدقت بالمعلمين متوسلا أن أسمع منهم خبرا مغايرا، في حين لم يتفوه ولا واحد منهم. كان معلمنا العصبي رجلا في غاية الرهبة. فما إن اقترب مني حتى انكمشت على نفسي أمامه، متذكرا أنني قد تأخرت في الصباح، وانتظرت كعادتي أن يشدني من أذني ويمطرني بالشتائم، ولكنه مر بجانبي صامتا كما لو أنه لم يرني. في ما مضى كان ينتابني الهلع من صوته الذي يشبه الرعد وهو يوبخني. فكان هذا المسؤول العتيد لصفنا مشهورا بقسوته في إدارة الطلاب. فقد كنا نهابه جميعا للغاية. فهو كان يضرب الطلاب الذين يخلون بالنظام. ولأنه يحرك يديه ورجليه معا حين يضرب، كنا نسميه "المعلم المصارع" بدون أن ندعوه باسمه عندما يكون غائبا. وإذا نادى باسم أحدنا آمرا بالمثول أمام السبورة ليوبخه كانت أبداننا تنتابها الرجفة بسبب الرعب. ولكني في ذلك اليوم ولأول مرة كم تمنيت أن يوبخني، يصرخ عند أذني بكل صوته شاتما إياي حتى يرتجف بدني، يشدني من أذني، يركل مؤخرتي دون توقف، أما المعلم فقد مر بقربي صامتا وكأنه لم يرني. فذرفت عيناي بلا شعور دموعا ساخنة.

كانت القطع الممزقة لجرائد الحائط، التي سقطت من الجدران في فناء

المدرسة، تتطاير مع الغبار بين أرجل الطلاب الملرين جيئة وذهابا العارية تحت سراويلهم الرثة التي لا تستطيع أن تستر حتى الركب بسبب التمزق والاهتراء. إن هذه الأوراق، التي تبدو كأنها تلونت بالدماء، كانت تلوح في طيرانها كما لو أنها ستأخذ معها إلى أماكن مجهولة حتى تلك الأرجل العارية والسراويل الرثة. ما من أحد كان يجرؤ على تمزيق جرائد الحائط هذه، وإن فعل ذلك فله أن يتأكد من أن أجله قد حان، لكنني لما كنت أراها تتطاير على الأرض لم أكن أستطيع أن أتكهن كيف سقطت من الجدار. وما إن تقدمت خطوة وأنا أجر ببطء خطاي المتثاقلة إلى داخل ردهة المبنى حيث قاعات الدرس حتى اندفعت إحدى الفتيات، يظهر أنها كانت تتراكض مع أحدهم، خارجة من داخل الردهة وهي تقهقه. في تلك اللحظة، كانت إحدى قدمي على الدرج والأخرى عند العتبة. ومع اصطدام جسمها بي على حين غرة، لم أستطع السيطرة على نفسي فانقلبت على ظهري بعيدا عن الدرج. كانت السقطة عنيفة جدا. و لم أستطع أن أتنفس برهة من الزمن بسبب الألم. كانت تلك الفتاة ذات الجفن المبطن لا تزال تضحك. يبدو أنهن كن يلعبن لعبة شيقة للغاية، فلم تستطع أن تمنع نفسها عن الضحك رغم أنها كانت تشاهدني أسقط بقوة. كما أن فتاة أخرى كانت تطاردها ظلت تضحك هي الأخرى غير مسيطرة على نفسها.

يظهر أن جسمي قد ارتج بقوة، فلم أقدر تلك اللحظة على النهوض بسرعة. وبعد فترة قصيرة، توقفت تلك الفتاة عن الضحك، ثم اقتربت وشدتني من يدي لأنهض. كان بطني يتألم بشدة، حماني الله و لم أصطدم برأسي، فكرت، فلو صدمت الأرض رأسي لما بقيت حيا بالتأكيد. نهضت عن الأرض بصعوبة جمة وأنا أضغط على بطني بيدي. كان بطني كما لو صدمته الكهرباء. ولقد تألم في البداية برهة كأنه تحت ضغط ثقيل، ثم أخذ يتألم كما لو يتقطع بالسكين. أجل، في تلك اللحظة، كانت بعينيها ذات الجفنين المبطنين تنظر إلي مشفقة.

ـــ لعلك لم تسقط بقوة؟

بعدما بقيت فترة لا أستطيع الكلام حابسا أنفاسي، قلت:

ـــ لا بأس... يلعن والدتك... لماذا تركضين هكذا مجنونة؟!

ـــ هل انزعجت؟ـــ كذلك سألت.

حدقت بها بصمت معاتبا، فيما كانت تنظر بدلال إلى عيني.

وها هي تلك الابتسامة، التي بعد سنين طويلة أضاءت قلبي فجـــأة بقـــوة. وأخيرا أخرجت إلى النور بعد جهد جهيد تلك الصورة الممزقة بسبب صـــور أخرى تكدست كالمزبلة في ذاكرتي.

واسمها تشينار!

.٤.

عندما أحضروه في البداية إلى مخفر الشرطة، ما كانوا يعرفون أبدا من هو.

ـــ ما اسمك؟

سأل الشرطي الشاب ذو الوجه الأسود كالزنوج، والشعر المجعد متطلعـــا إلى وجهه الدهني. كان وجه هذا الرجل الشاحب كما لو يـــذوب فيـــه الدهـــن ويتقطر. وأما الشرطي فبغض النظر عن وجهه الأسود كان يمكن اعتباره رجـــلا أنيقا. فحين سمع سؤال الشرطي رسم على شفتيه ابتسامة غريبة مـــن نوعـــها، حيث بهذه الابتسامة الغريبة بدا وجهه الدهني اللماع منفرا إلى أبعد الحـــدود. فقد أثارت ابتسامته غضب الشرطي الشاب فجأة. إذ انتفض من مكانه حيـــث كان جالسا وقد أحس بأنه أهين، لكنه ما إن انتصب على قدميه حتى هدأ مـــن جديد.

إن هذا الرجل ما كان يشبه أبدا باقي النشالين الذين أتي بهم إلى هنا. فوجهـه الجامد مع تعبير وحيد كما التمثال، لم يكن يتصف البتة بـــأي تعبـــير آخـــر كالتوتر، والدروشة أو التوسل، والخبث. أما ابتسامته الغريبة تلك فكانت تلوح

وكأنها تزيد أكثر من البرودة الجليدية السائدة في هذا الوجه. كان يبدو وكأنه لا يدرك على الإطلاق أين هو واقف الآن.

لقد أدهش التحقيق الأولي رجال الشرطة. فلم يكن يظهر على هذا الرجل أنه قد امتهن السرقة أبدا.

ـ إن طبع هذا الرجل غريب نوعا ما، وإنما هو إنسان طيب إلى أبعد الحدود،ـ أفاد جاره عندما قصده رجال الشرطة للحصول على مزيد من المعلومات. فلم يستطع جيرانه أبدا تصديق ما سمعت آذانهم حين قيل لهم إنه موقوف في مخفر الشرطة بسبب السرقة.

ـ إنه رجل مسالم جدا. لا يخالط الآخرين مطلقا. وليس له علاقة بأي شيء.

قال شيخ كان يؤاخذه أنه يترك التلفزيون دائما بصوت عال:

ـ إن عيبه الوحيد هو أنه يرفع صوت التلفزيون عاليا، لكن في نظري حتى هذا يمكن فهمه. لأنه عازب. لعله قد تجاوز سن الأربعين حتى قبل بضعة سنوات، ولم يفكر إلى الآن أن يتزوج. وهل من السهل أن يظل الإنسان عازبا حتى ذلك العمر؟ لا يمكن سماع صوت التلفزيون ولو كان عاليا جدا لما يكون الرجل وحيدا في البيت.

ـ العزوبية أمر صعب،ـ قال رجل بقامة قصيرة ومتكورة. ولقد جذب انتباه الشرطي الشاب يداه الصغيرتان المكتنزتان. إن هذا الرجل كلما ينطق بكلمة كان يحرك يديه باستمرار، كما لو أنه يتكلم معتمدا على يديه، وأنه إذا أوقف يديه عن الحركة لا يستطيع أي كلام،ـ نحن لا نفهم أبدا لماذا لا يتزوج حتى الآن. كذلك نحن مستغربون من ذلك. إنه لا يخالط أحدا. ولا يتحدث مع أحد. فنحن حين نسمعه يشغل المسجلة تاركا صوتها يأخذ مداه نتأكد بعدئذ من أنه ما زال موجودا في هذا العالم.

ـ إنه يقوم بوظيفته بمنتهى الجدية والدقة، فهو يعمل مترجما. إن ترجمته

جيدة للغاية، ولكنه بطيء جدا، فحتى الصفحة الواحدة إن لم تسلم لـــه قبـــل يومين أو ثلاثة لا يستطيع أن ينجز ترجمتها، وأما ما أنجزه من ترجمة فهي متقنـــة جدا، حتى إن نقطة واحدة فيها لا يمكن تغييرها. بينما هو رجـــل مســـالم إلى درجة لا يتصورها العقل...ـــ قال مديره مشيدا به،ـــ فنحـــن لا نتذكـــره إلا حين نحتاج إلى ترجمة شيء ما وحسب.

لم يستطع الشرطي الشاب أن يصدق أبدا بأن ذلك الرجل بمقدوره ترجمـــة الكلمات من لغة إلى أخرى. كان يحس بأنه ليس من المعقول إطلاقا لا أن يفـهم كلام الآخرين فحسب، وإنما يستطيع أن يترجمها ويشرحها للآخرين.

ـــ منذ متى اعتدت حضرتك على السرقة؟ـــ استعمل الشرطي الشاب بـــلا شعور كلمة "حضرتك" وهو يحقق معه.

ـــ لم أحاول أن أسرق في حياتي... وهل برأيك أنني يمكن أن أسرق؟

ـــ لدينا أدلة كاملة. هناك أكثر من شاهد يقول إنه قد رآك وأنت تســـرق. فعندما كنت حضرتك تضع يدك في جيب تلك المرأة كان الذين من حولـــك يراقبون حركاتك.

ـــ ما شاهدوه كان خطأ. فحين ضغط السائق على المكابح بشكل مفـــاجئ حاولت أن أتمسك بشيء كيلا أقع فلم تفلح يدي. فقد اندفعت حـــتى رأيـــت نفسي مستندا إلى تلك المرأة، كان الحافلة مزدحمة بالركاب، فأنى لي أن أعـرف كيف استطعت أن أتمسك بخصرها. أنت تعلم، فأنا لست من الذين يشـــتهون النساء كثيرا، وإلا فكيف أظل عازبا حتى هذا اليوم؟!

ـــ هل سمعت أني اتهمت حضرتك بالتحرش بالنساء!

ـــ أجل... أجل... إن يدي امتدت إلى خصرها بدون قصد لأنه لم يكـــن هنالك أي شيء تستند إليه.

ـــ خصرها أم إلى جيبها؟

ـــ هذا سواء بالنسبة لي، لأنني يكفي فقط أن أحمي نفسي مـــن الســـقوط

ممسكا بيدي أي شيء، بغض النظر عما يكون ذلك الشـــيء. ودون أن أدري انزلقت يدي إلى جيبها.

ـــ وماذا عن النقود؟

ـــ صحيح، علقت نقود بيدي. فعندما قطعت التذكرة في الحافلة أعـلدت إلي بائعة التذاكر بقية النقود مع التذكرة. وبعدما فقدت توازني وكـــدت أن أقـــع أحسست بأنني أمسك بالنقود في يدي وأنا أعود أقف بثبات علـــى رجلـــي، خلت أنها تلك النقود التي أعادت إلي بائعة التذاكر. فمن أين لي أن أعـــرف أن النقود التي في يدي كانت لها.

هكذا كان يتكرر التحقيق دائما على وتيرة واحدة. إن الأسئلة والأجوبة بين الشرطي الشاب والسارق كانت تعيد نفسها مرة تلو الأخرى وبالرتابة نفســـها كما لو دونت على شريط المسجلة.

إن هذا المكان لهو أرض أكثر مناسبة لتعلم اللغة، فكر، فإذا أراد الأجـلنب أن يتعلموا لغتنا فمن الأفضل أن يأتوا إلى هنا، وعندما تظل مثل تلك الاستجوابات تتكرر مرة بعد مرة لا يبقى هناك حاجة لـــدى أشـــخاص يســـمعونها إلى أن يحفظوا، فإن هذه المحادثات تصبح بشكل طبيعي ممهورة في ذاكرتهم.

لم يحدث أي تقدم في التحقيق الذي استمر بضعة أيام. فقد أخلـــوا ســـبيله أخيرا. ففي تلك الأثناء، ما كانوا يتخيلون أبدا أنه كذلك سيلقى القبض عليـــه مرة أخرى.

.٥.

استيقظت فجأة في منتصف الليل. لم يكن بي أي رغبة بـــالنوم. أحســـت بأنني في غاية النشاط. كانت أعصابي متوترة من شدة الانفعال. وبعد أن بقيـــت مستلقيا فترة قصيرة في الغرفة المظلمة وأنا أحدق بالسقف غادرت السرير أخـيرا دون أن أتمالك نفسي. كنت أستيقظ هكذا في كل يوم. ففي مثل هذا الوقـــت

كان كياني يشتعل نارا.

ارتديت ملابسي على عجل، ثم خطوت خارجا. حالما غادرت ردهة المبنى شعرت بالريح الباردة كالصقيع تلفح صدغي، ولكن شراييني الحامية ما كانت لتبرد ولو قليلا. ثم توغلت داخل الظلام مترنحا كما الشبح. كانت المدينة متشحة بالثلوج. وكان الثلج الفضي يلمع بخفوت في قلب الظلام ويجعل العالم أكثر عتمة ووحشة.

لقد غدت الشوارع خالية من المارة. وكان يسمع من مكان ما صوت سيارات. عدا ذلك، كان المحيط هادئا. فقد بقي العالم كله، والشوارع المعتمة، والأزقة الضيقة المتعرجة متروكة لحريتي لكي أستمتع كما هي الحال في مثل تلك اللحظات، حيث أتخفى في المراحيض في أماكن خالية وأسحب من حضني خفية صورة امرأة عارية، كي أتفرج مرة بعد مرة بخوف وتلهف كما باندهاش.

كنت حذرا للغاية، مثلما كنت فاقدا لرشدي. حابسا أنفاسي، محرضا جميع الحواس، كنت أراقب الأصوات حولي. وكنت أبحث في شوارع متعرجة ومظلمة عن النوافذ التي لا تزال مضاءة.

تناهى إلى سمعي فجأة صوت خطى، فالتفت حولي مذعورا إذ بي لمحت فوق الجليد المتشكل من الثلوج البيضاء مخلوقا يجري مع خطواتي تحت قدمي. كان جرذا. مشى فترة طويلة أمامي بالضبط، ثم ابتعد مختفيا في مكان ما.

كان كياني كله يرتجف بشدة، عندما ظهرت أمام إحدى النوافذ التي كانت لا تزال مضاءة. وبعد أن ألقيت حولي نظرة سريعة مستطلعة، حبست أنفاسي ودنوت من النافذة متقدما بهدوء على رؤوس أصابعي. فكلما أخطو خطوة، كنت أضع في البداية إحدى قدمي على الأرض بدون أن أصدر صوتا، ومن ثم، مركزا عليها ثقل بدني، أنقل قدمي الأخرى وأنا أقترب من النافذة، ففي هذه الحالة كنت أستطيع تلافي أي صوت.

حين نظرت وأنا أمام النافذة بما فيه الكفاية، شاهدت النافذة وقد أسدلت ستائرها بإحكام. و لم يكن بالإمكان أبدا رؤية ما في داخل البيت. وقفت أمام النافذة لبرهة وأنا ألعن في داخلي كل الستائر الموجودة في العالم. إن هذه الستائر السميكة ما كانت تترك لأحد أية إمكانية للرؤية. ترى، أي نوع من الأوباش ابتكر الستائر على النوافذ؟! بدأت أسترق السمع إلى ما خلف النافذة حابسا أنفاسي بشدة، كنت أرغب بسماع أصوات معينة من خلفها، ولكن لم أستطع أن أسمع شيئا و كأنه لا وجود لأي شيء وراء تلك النافذة.

كذلك كما المتشرد رحلت بحثا عن النوافذ المضاءة.

لست أدري بتاتا منذ أية أزمنة قد أصبحت أتجول كل ليلة متشردا في هذه الشوارع. فقد مضى لهذا الأمر سنوات طويلة. ربما عشر سنوات أو ربما خمس عشرة سنة. لم يحدث وحصلت على شيء من التجول الليلي اللا مجدي، والذي لا ينتهي. لكني لم أستطع التخلي عن مواصلة هذا السلوك، فمن جديد أدلف إلى تلك الأزقة المظلمة في كل ليلة مع مثل ذلك النوع من الوسواس الذي لا يمكن السيطرة عليه وقلبي مسكون بالرعشة، وكياني يرتجف.

كذلك اقتربت من عدة نوافذ. وعندما أبتعد عن نافذة يائسا، كنت أدنو من نافذة أخرى. كنت أؤمن بأني إذا ما فشلت أمام إحداها، فسوف أشاهد بالتأكيد عبر أخرى. كان كلي ثقة في أنني أكاد أصادف نافذة لم تسدل عليها الستائر كليا. منذ سنين عديدة وأنا أؤمن بهذا الشكل، لكن لم يتيسر لي أبدا رؤية تلك الحالات، التي يصعب تصورها، داخل النوافذ. وكأن لا وجود لذاك الشيء في العالم.

وأنا أقترب من إحدى النوافذ، رأيت أن ستائرها ليست محكمة الإغلاق، فتقلص كل جسدي بشعور مليء بالتوتر والخوف. وإن لم تغلق الستائر كليا كان هناك ستار داخلي شفاف، ومع ذلك كان لا يمنع إلى حد ما من رؤية ما في داخل البيت. كان زجاج النافذة مغطى بطبقة رقيقة من الجليد، رغم ذلك

كان يمكن النظر إلى داخل البيت عبر مساحات لم يغطها الجليد. فحتى لا يسمع من في داخل البيت أنفاسي المتسارعة انتظرت برهة من الزمن لكي أهـــدأ، ثم نظرت عبر النافذة ملصقا وجهي بالزجاج. وما إن نظرت إلى الداخـــل حتـــى شاهدت شيئا بلون البشرة، فتأوهت فجأة كأن قلبي صدمه تيار كـــهربائي، ثم التفت حولي مرتعبا، كان يظهر أنه لا أحد هناك سيعبر المكان. ركزت كـــل انتباهي ونظرت إلى داخل البيت، كان ذاك الشيء الذي يشبه جسد الإنسان لا يني يتحرك كما شعلة نار، وكان كياني يشتعل جمرا مع كـــل حركـــة مـــن حركاته. وبسبب الانفعال الرهيب كنت أفقد وعيـــي وأحـــس كـــأن قلـــبي سينفجر. ولكني حتى في مثل ذلك الوضع الذي أفقد فيه وعيي كنت ألتفـــت حولي بخوف قلقا من مجيء أحدهم.

بعدما تعتم زجاج النافذة بسحابة أنفاسي المتسارعة و لم أســـتطع رؤيـــة أي شيء، كنت أزيح وجهي وأعاود النظر. فكرت للحظة بأن أمسح الأماكن الـتي ترطبت بأنفاسي وذلك خوفا من أن يتدارك من في داخل البيت. ففـــي تلـــك الأثناء، توقف ذلك الجسم بلون البشرة عن الحركة، فحاولت السيطرة علـــى نفسي وأخذت أراقبه بدقة مركزا ذهني، عندئذ فحسب تمالكت فجـــأة وقـــد أصبت بيأس شديد، وجسدي المنقبض بسبب التوتر العنيف سرعان ما ارتخـــى. شعرت بركبتي ترتجفان.

لم يكن ما شاهدته منذ قليل جسد امرأة، وإنما تبين لي أنه مهد عليه غطـــاء بلون أصفر فاتح. فقد رأيت ذلك بوضوح حالما نظرت من فتحة وجدتها بـــين طبقة الجليد على النافذة. كان هناك امرأة عجوز تهز المهد جالســـة. ليتـــني لم أستطع رؤية هذا بوضوح! فكرت. فلو إنني لم أكتشف صدفة تلك الفتحة غـــير المغطاة بالجليد لما استطعت مشاهدة ما في داخل البيت بشكل واضح، وهكـــذا كنت أظل أتخيل اهتزاز الغطاء الذي كان على المهد أنه جسد امـــرأة عاريـــة، وأبقى مؤمنا إلى الأبد بما شاهدته مباشرة ودون واسطة. فبالنسبة لي ما كـــان إلا

جسد المرأة ذاته، وكان كل ذلك سواء بالنسبة لي. لو إني لم أعرف أنه ليس جسد امرأة عارية، وإنما مجرد مهد، ولم أكتشف تلك الفتحة اللعينة غير المغطاة بالجليد في النافذة، لما كان هنالك من فرق بالنسبة لي بين المهد وجسد المرأة اللذين تراءيا لي. إن الذي أبحث عنه هنا شكل من الانفعال. فأنا أحاول فقط أن أرتفع بذلك الانفعال الرهيب في كياني إلى أوجه، ومهما يكن ذلك الشيء فإذا استطاع إثارة ذاك النوع من الانفعال في فلا يختلف بالنسبة لي عن جسد أية امرأة. حتى الآثار التي خلقها غموض بسيط في ذلك المكان تلاشت فجأة، فكم كنت أتمنى أن يبقى غامضا أبدا، وأن يترك في إلى الأبد إمكانية أن أتصور بحرية كما أشاء!

منذ زمن بعيد وأنا أتلصص من نوافذ لا عد لها. ولكن لما أر بعد ولو في واحدة منها جسد امرأة عارية أو حركة سرية يقوم بها أناس آخرون. أتجول طوال الليل، مثل عفريت أهلكه الجوع، في الشوارع كلها وفي الأزقة كلها. وعندما أدنو من كل نافذة يرتجف كياني بشدة، ولا يتسع الجسد لأنفاسي. ومع أنني لم أشاهد أبدا ما كنت أتمنى مشاهدته من أمور، لكني كذلك برغبة متوحشة أواصل تشردي اللا متناهي فاقدا كل سيطرة على نفسي. ولقد أصبحت في النهاية أشك بوجود تلك الأمور في العالم التي لطالما تمنيت مشاهدتها. فلم يسمح لي بذلك أولئك البشر القساة. لقد حجبوا النوافذ بستائر سميكة حتى جعلوا تلك الأمور، التي أردت رؤيتها خفية، أكثر غموضا، لا يمكن معرفة كنهها، حتى لا يمكن تصورها. وإن هذا الغموض قد جعل منها أكثر قدسية، فكلما اشتدت غموضا ازدادت قوة جاذبيتها لكي تدفعني إلى فقدان عقلي نهائيا وإلى التوحش الكامل وإلى الهلاك. فهي، مثل الأشياء الأخرى المقدسة والغامضة، تحولت إلى ما يستحيل عدم التصديق بوجوده في حين لا يكشف عن نفسه أبدا. رغم ذلك لم أستطع التخلي عنها. فقد أدركت فيما بعد، أن الذي كنت أبحث عنه في الشوارع، في النوافذ المضاءة، والذي حكم

علي بالتشرد إلى هذا الحد، وتسببـ في فقداني لرشدي، وتركني أتوحـــش إلى هذا الحد ليس شيئا آخر، وإنما كان مجرد شعور بالخوف والتوتـــر، فحســب، اللذين لا حدود لهما، حيث ينوجدان حين أقترب من كل نافذة. إن هذا النـوع من الشعور الإجرامي واللذيذ كلما استمر زمنا طويلا انتشيت أكثر. وإن كنت لا أنقطع لحظة عن التلفت يمينا وشمالا وأنا في كامل ارتباكي، لكنني ناسيا كـل شيء أغوص عميقا نحو قاع ذلك الشعور اللا متناهي والمظلم، الذي يختلـج في داخلي. فأنا في تلك اللحظة أتفرج على الدوران الشـــديد لدمـــي الـــذي في جسدي، وأحس كأنني أسمع خرير الدم المتدفق. إن الانفعال الذي لا حدود لـه يترك جسدي يرتج، وخلاياي تنتفض. أجل، إن الذي أبحث عنه في هذا المكـلن هو فقط مثل هذا الشعور— الخوف اللا متناهي والوسواس. فالشعور بـالخوف، البارد كالجليد، يمتزج في كياني بالوسواس المضطرم نارا حتى يصبح لذيـــذا لا يتصوره العقل. أما أنا فلا أدري أبدا منذ متى أصبحت مفتونا من كل جوارحي بالشعور بالخوف ولا لماذا. ربما ليس هناك في هذا الكون أحد سواي يفهم كـم لذيذ هو الخوف، لا أحد يعرف أن يستمتع بالخوف، لعل البشر يفرون منه لأن متعته لا تضاهيها متعة، ولأنهم لا يحتملون الانفعال بتلك المتعة. ففي نظـــري ليس هناك من شعور في الكون يضاهي الشعور بالخوف لذة.

ما أبحث عنه في الشوارع ليس إلا ذلك الشعور اللذيذ بالخوف، وإن الرغبـة برؤية الأجساد العارية للنساء مجرد ذريعة لإثارة ذلك الشعور فقط، وليســت الهدف البتة. وفي الحقيقة، لا فائدة من مشاهدتي لجسد امرأة عارية، لأنـــي لا أستطيع أن أتصرف تجاهه بأي شيء ولو إني أشاهده، فقط أستطيع أن أنظر إليه من وراء النافذة، فلو ليس بمقدوره أن يثير في الشعور بالخوف لما تلصصت عليـه أبدا كما لم يكن لتلصصي من أهمية.

ينبغي على الإنسان أن يقدس كل شعور دقيق في كيانه.

لا أحد في هذا العالم بإمكانه الحصول على شيء عدا الشعور.

فالشعور هو الحياة.

كيف للبشر أن يستمتعوا بما في كيانهم من شعور بالرغبة الجنسية، بالغبطة، بالشبع، وليس بمقدورهم التمتع بالشعور بالخوف، إذ يبددون هذا الشعور الذي يكلف أكثر من غيره بأضعاف؟ أشعر بالحزن الشديد تجاه حماقة البشر.

بعد أن تحولت في العديد من الشوارع والأزقة كلها في الجوار، وجدت نفسي في النهاية على زاوية الشارع حيث أخذت أتشكى متطلعا نحو السماء وأسناني تصطك. إن الذي أثار لدي الخوف كان شعورا إجراميا أكثر بدائية يوجد في كيان الإنسان، حيث لم أستطع تحمل العذاب الذي أعانيه جراء ذلك الشعور الجنائي فأخذت أتشكى. إن هذا الشعور الإجرامي يحطمني على الدوام. فأنا بسبب ذاك الشعور أتمنى أحيانا أن أنتهي إلى الموت. ولكن ما جعل الخوف لذيذا كذلك هو الشعور الإجرامي! لماذا يتلذذ البشر بالانفعال الجنسي؟ لأنه مفعم بشكل من الشعور الإجرامي. فليس هناك من متعة جنسية لولا الشعور الإجرامي. كذلك الخوف لذيذ مثل الانفعال الجنسي. إن ذلك الشعور الإجرامي الذي يعذب الروح مؤلم كما هو لذيذ.

المصابيح المعلقة تضيء الشوارع الرئيسية بخفوت. ولذا، لا أجرؤ على التلصص تحت الضوء عبر النوافذ الكائنة على جانبي تلك الشوارع. فبسبب الضوء في الخارج يلمح الموجودون داخل المترل بسهولة جسم رجل يسترق النظر. أما الأزقة فهي مظلمة، ولا يستطيع رؤيتك من في البيت ولو ألصقت وجهك على زجاج النافذة بقوة. فأنا عندما أتلصص أكون حذرا للغاية، إذ لا أريد أبدا أن يراني الآخرون. ولكنني أخال أن الآخرين ما فتئوا يراقبونني في ذلك باستمرار. ها هم أولئك السفلة الوقحون يتتبعون خطواتي بالتأكيد لكي يجعلوا مني هزءا يوما ما، أو إنهم أيضا يتفرجون كما أتفرج أنا الحياة السرية للآخرين، أي سلوكهم الجنسي في الخفاء حيث يمارسونه بمنأى عن أنظار الآخرين. وأنا سائر في الأزقة المظلمة أتلفت حولي باستمرار بحثا عنهم، ولكن

لا تتراءى أجسامهم لي أبدا. هكذا هم جميع الذين يعرفونني. إنهم مفتونون بوحشية برؤية الحالة المزرية للآخرين. فهم خبثاء للغاية، لا يجعلونني مهما حدث أن أكتشف أنهم يتربصون بي، كما لو لم يتربصون بي على الإطلاق. ولهذا السبب فقط أفكر أحيانا أن أتوقف عن تحركاتي في الليل، لكن لا أستطيع أن أسيطر على نفسي، وأما في اليوم التالي فلا أقدر أحيانا على الخروج من البيت أثناء النهار جراء الإحساس بالعار من سلوكي المخزي طوال الليل. أقسم لنفسي بأني لن أقوم أبدا بذلك التصرف مرة أخرى، ثم أغط في النوم بهدوء في الليلة التالية وكأني على العهد. في هذه اللحظة، أغفو بطمأنينة كما لو لم يكن لدي أية رغبة بأن أفعل ذلك، لكن، في منتصف الليل، ينتفض كياني كله بانفعال عنيف، فأستيقظ فجأة. إن ذلك الوسواس الذي لا نجاة منه يسرع بشدة دوران دمي في شرياني. هكذا أخرج إلى الشارع متوحشا غير مسيطر على نفسي من جديد.

إن البشر يخفون وراء الستائر السميكة تصرفاتهم تلك، وكأنها جريمة لا تغتفر، وأنا أستغرب كيف أنهم يحسون بأنها جريمة، ثم يمارسونها رغم ذلك. ولا أستطيع أبدا فهم ذلك. كنت أتخيل دائما هذه التصرفات، وكلما أتخيلها كنت أجهد نفسي بأن أمنحها مظهرا ملؤه الغموض والغرابة، ولما تتصف بذلك الغموض والغرابة، عندئذ فحسب كان يمكن زيادة قوة جاذبيتها. فلو تخيلتها كمجرد حركة عادية لما بقي منها أية قوة جاذبة. إن هذه الأمور في تصوري كانت على الدوام أجزاء متفرقة ومجهولة، وما كان بمقدوري إخراجها في شكل متكامل. وإنها كانت تتحول باستمرار في مخيلتي. فالذي أعطاها المظهر الغرائبي كان بالضبط هو هذا اللا ثبات. هكذا يكون دائما تخيل الأمور التي لم تراها العين بتاتا، فالبشر يتصورون أمورا وأشياء لم يشاهدوها في حياتهم مستعينين بما يتقارب منها بالشبه أو يتناسب معها. لكن ليس هناك من أمور تشبه ما أريد رؤيته، لذا ليس بالإمكان تخيله بصورة متكاملة بدون مشاهدته

ولو مرة.

إنهم يتربصون بي بلا هوادة، ثم هم على علم بكل ما أفعل. فأنا أيام تتسلقط الثلوج آتي خفية في الصباح أمام نافذة بيتي لألقي نظرة لأتأكد إذا ما كان هناك أي أثر خلفه وراءهم أناس آخرون. إنهم ماكرون جدا، لا يتركون حتى أثرا للأقدام. فكيف لهم ألا يعرفوا أنني أمارس الاستمناء خفية! قبل عدة أيام، عندما كان يتحدث بضعة موظفين في المكتب حول صغر حجم التنورة التي ترتديها النساء حاليا والتي أصبحت لا تغطي حتى أردافهن، التفتوا إلي ضاحكين. فقد رأيت واحدا منهم بكل وضوح كيف كان يكشف عن أسنانه بابتسامة توحي بما فكر في دخيلة نفسه. فذلك اللعين الوقح قد ابتسم بهذه الدرجة من السفالة أحسست معها برغبة عنيفة بأن أقطعه من شدة غضبي إلى قطع ممزقة. لقد فهمت على الفور لماذا ابتسم وهو ينظر إلي. هكذا، فقد أراد أن يقول، من وراء حديثه عن التنورة التي لا تني تصغر على جسد المرأة، إنني أنا الذي ما زلت أمارس الاستمناء مترويا في بيتي، في حين تكاد النساء يخرجن إلى الشارع عاريات وقد كشفن عن أجسادهن!

والشك الذي اعتراني بأنهم يتربصون بي خفية على الدوام ليس هو بلا أساس على الإطلاق. فعندما أعود إلى البيت قبيل الفجر، كان يتناهى إلى سمعي صرير الباب في شقة تقع في الطابق الثاني فوق بيتي، وقد حدث ذلك عدة مرات. إنهم يتظاهرون كما لو لم يحدث أي شيء، ليس لهم علم بأي شيء. وإن مثل هذا الخبث وهذا اللؤم، اللذين يصدران من أرواحهم الدنيئة، يخترقان جوارحي كالرصاصة. ما لهم يتصرفون هكذا؟ لماذا يخبئون بهذا الشكل إذا كانوا يعرفون ما أقوم به في الليل من استراق النظر بسفاهة أمام النوافذ كلها؟ ولماذا يتظاهرون بأنهم لا يعرفون أبدا؟

ـــ بختيار!

ناداني صوت أنثوي في الشارع الرئيسي وفي وضح النهار، التفت ورائي أنظر

إليها مستغربا. كان للمرأة التي نلتني بشرة سمراء ونهدان ضخمان رغم جسدها المتناسق. كانت تسكن في شقة في البناية المقابلة للمبنى الـــذي أقيـــم فيـــه. لم أستغرب كثيرا أنها تعرف اسمي. هذا يدل على أنني كنت على حـــق في كـــل شكوكي. فكيف هي تعرف اسمي في حين أني لا أعلم ما هو اسمها؟ هذا يعـــني أن أسراري قد انتشرت بين كل الناس. فهم يتناولون شـــخصي في أحاديثـــهم الشيقة، وهكذا أصبحوا يتناقشون مندهشين واسمي يطير بين أفواههم. وإلا فمن أين لها أن تعرف اسمي؟! إنهم بهائم غير طبيعيين يطيرون من الفـــرح مـــثرثرين عندما يكتشفون أمرا لدى الآخرين يتعلق بالحياء، فـــهم يتخـــذون لأنفســـهم مظاهر طبيعية للغاية، وفي الواقع، داخلهم مليء بالأمراض!

ـــ هل هذه الرسالة لك؟

مدت يدها بالمظروف. ألقيت نظرة على صدرها الضخم كما لو نفخته تلك القذرة رغبة منها بأن تعرضه أمامي، ثم تناولت منها المظروف وأنا أتفحصه.

ـــ كلا، ليست لي، لم أستلم في حياتي رسالة من أحد!ـــ قلت. كان كذلك في الحقيقة. فإذا ما استثنيت كوني أبعث بالرسائل دون انقطاع، ليس لي هنـــاك أية علاقة مع مكاتب البريد. فقد ظننت أن المظروف الذي نـــاولتني ينبغـــي أن يكون إحدى الرسائل، التي أعيدت إلي بسبب كتابة العنوان على نحو خاطئ.

ـــ إذن، يبدو أنه شخص آخر اسمه أيضا بختيار! لقد أحضـــرت إلى دائرتنـــا بشكل مغلوط. اعتقدت أنها يمكن أن تكون لك.

تفوهت بهذا الشكل، ثم واصلت طريقها كما لو لم يحدث ما حدث.

هكذا يعتقدون أنني غبي. وهل في ظنهم أني لا أعرف لماذا نـــادت بـــاسمي وتحدثت معي! إن تلك الرسالة التي أرتني إياها مزورة بشكل كامل. كيف لمثـــل هذا الأمر أن يحدث. فهي تذرعت بأن تستفسر أمر تلك الرسالة، وفي الحقيقـــة، استوقفتني في وضح النهار على رصيف الشارع الرئيسي لتجرب أن ترى حـــللتي النفسية وأنا في غاية الارتباك أمامهم لاعتقادي أنهم على علم بأمري المخـــزي،

الذي أسلكه في غياهب الليل. وبهذه الطريقة، يريدون دفع احتفالهم بالخزي والعار إلى أوجه ماضين قدما إلى الأمام. أما أنا فلا أستطيع أن أنسى إلى الأبد كيف وقفت أمامي تلك القذرة تنظر إلى وجهي. لست شخصا مشهورا على الأقل، كما أنني لا أظهر دائما على شاشات التلفزيون مثل تلك المطربات المبتذلات، ومثل أولئك النجوم الهزليين، الذين يتوخون من خلال تقليد النساء تجهيز أرضية قانونية لما هو كائن لدى البشر من حب بين الجنس الواحد، وكما لا يظهر اسمي في المطبوعات دائما مثل أولئك الكتاب، الذين اشتهروا بنقد الشعب الأويغوري وذمه عبر كتاباتهم، مثيرا إعجابا ما بعده إعجاب بين المرضى المصابين باعتياد القهر، الذين يستمتعون بالذل، فلماذا هي تعرف اسمي إذا؟!

هناك الكثير من مثل هذه الأمور. كنت واقفا أنتظر الحافلة، فإذا بمخلوق ذي وجه أسود كالفحم، يسكن في الطابق العلوي في المبنى نفسه حيث أقيم، نظر إلي وهز رأسه محييا. إذن، لم يستطع أن يخفي أنه هو الآخر كان يتربص بي دائما مثل الآخرين. وإلا فلماذا التحية؟ كما أنني لست من معارفه القدامى. وإن كان يسكن معي في المبنى نفسه. أيحييني جميع سكان هذا المبنى! وكونه يسكن معي في المبنى نفسه هل يبرر أنه يجب أن يحييني؟!

لقد أصبحت بسببهم في وضع لا يحتمل. وكم أتمنى أن أراهم وهم كلهم عميان ومصابون بالخرس.

كلما أعود إلى البيت في الليل، أتفحص كل الأماكن حيث يمكن لأحدهم أن يختبئ هناك، لأتفادى مراقبتهم إياي بعد دخولهم خفية إلى بيتي. فلما أتأكد من عدم وجود أي شخص، حينذاك أتمدد مطمئنا لأغرق في النوم. فلا يبقى هناك مخبأ لم أتفحصه، المكتبة، الشرفة، المرحاض، خزانة الملابس، تحت السرير...

لدي عادة، أكلم نفسي باستمرار داخل البيت. أعرف جيدا أنه حتى هذا

النوع من العادة يراها الناس مضحكة. لهذا السبب، حتى هذا الأمر أقوم بـــه في الخفاء خوفا من معرفة الآخرين له. لكنهم لا يتركون لي المجال حتى أن يكـــون لدي هذا القدر من الشخصية. إنه أمر يشبه إراحة البال بالغناء وحيـــدا كمـــا يفعله البعض. فأنا أتجاذب أطراف الحديث مع نفسي، بذلك تتـــذوق روحـــي طعم السلوان. وبالطبع، لم أفرض يوما على حديثي موضوعا محددا. ليـــس لي أحد أتحدث معه. لا أحد يود محادثتي، ومخالطتي. يتظاهر البعض بأنهم يرغبـــون بذلك. ولكن نواياهم واضحة، هكذا أوغاد وقحون جميع من ينـــوون إقامـــة علاقة معي. يفوح الخبث واللؤم من نظراتهم المقنعة بابتسامة. فهم، من خـــلال اقترابهم مني، بودهم مراقبتي بطريقة أفضل، ثم السخرية مني. لذا، لا أفسح لهـــم المجال للتودد لي. ليس هناك من يرغب بالتعامل معي بمحـــض الصداقـــة. مـــا التكشير عن أسنانهم بابتسامة سوى لغم تحتـــه الشـــؤم والســـموم. ينـــوون بابتساماتهم الوقحة ونظراتهم المبطنة إيحائي بما يتكهنون. أما أنا فأمام نظرتهـــم، المنتصرة كهذه، أحس بأني أتمرغ بالوحل. أعصابي تنهار.

طويلا، طويلا أتحدث مع نفسي. موضوع الحديث حر للغاية، لا يحده حـــد. خال من رقابة القانون، والأخلاق، وحتى المنطق وقواعد اللغة. كلها أحـــاديث ميكانيكية، أوتوماتيكية، في حالة لا وعي تام. حتى أحاديثنـــا، أنـــا ونفســـي، أخفيها عن الآخرين، مثلما هو الحال مع التلصص أمام النوافذ في الليالي، وعـادة الاستمناء. لا أريد بأي حال من الأحوال أن يحس به أحد، أيا كانت هويته، في أي وقت، بأي طريقة. لكنهم لم يتخلوا حتى عن اقتحـــام هـــذا الشـــبر مـــن أسراري.

سبب خوفي من سماع الآخرين لما أحدث به نفسي هو أن هذه الأمور أيضـــا خارج سيطرة العقل، تماما، كما يمارس البشر من أشياء في الليل خلف النوافـــذ المغطاة بالستائر السميكة. يستمتع الآخرون بممارسة الأشـــياء الخارجـــة عـــن سيطرة العقل، وبما أني لا أستطيع ذلك، أمتع نفسي بكلمات تتمرد على سـلطة

العقل. لكن، حتى هذه التوافه لم تستطع النجاة خارج انتباه هـــؤلاء المصـــابين بوباء العار.

ـــ تعال ورائي من كل بد، سأكون هناك بانتظارك! لا تدعني أهفو إليـــك نهارا بأكمله. الطقس بارد جدا اليوم...

سمعت، مرة، رجلا يتفوه بهذه الكلمات بصوت عال، وهو يترل من الطوابق العليا. "من الذي يكلمه؟"، تطلعت نحو الأعلى، كان لوحده يهبط الدرجـات. ولا صوت من الأعلى أجاب. فأدركت للتو أنه كان يقلدني دون أن يفصـــح عن ذلك. لا أتذكر متى نطقت بتلك الكلمات محدثا نفسي، لكن الواضـــح أن ذاك الوغد كان يقلدني. فكرت بهذا، فأخذت جبهتي تتصبب عرقا ساخنا، أمـــا هو فمر بجانبي متطلعا إلي مثل الجرذ. حينما غادر المبنى، صعدت الطوابق العليـــا مستطلعا. كانت الأبواب كلها موصدة، ولا أحد على الدرجـــات. فـــهمت، تقصد تقليدي مستفزا جوارحي وذهب. لماذا يتلذذون إلى هذا الحد برش الملـــح في جرح الآخرين. يخرجون تصرفهم بمنتهى الجد، للتمويه، كيلا أكشف مـــا يلعبونه من أدوار.

عدة مرات تكرر مثل هذا الأمر. في إحداها، سمعت فتاة، ذات شعر ذهـــبي، تسكن في المبنى المقابل، مرت بقربي وهي تدمدم بكلمـــات، فخرجـــت عـــن طوري، حتى سألتها بنبرة جارحة:

ـــ بماذا تتفوهين؟

بعدما تفحصتني طويلا بهيئة مندهشة، أجابتني بسؤال:

ـــ ماذا حصل؟

ـــ ماذا قلت للتو؟

ـــ ها.. استغربت.. غنيت بس..

قالت تلك العاهرة الوقحة وهي تقهقه بصوتها الشهواني. إن ضحكتها هـــذه قصفت روحي. كما كان هذا مبتغاها. كذبت بأنها كانت تدمدم بأغنيـــة، في

الحقيقة، سخرت مني بكل صراحة تذكيرا بأمري (أي أكلم نفسي)، ألا أفـــهم هذا؟! هم يشعلون دمك بوقاحتهم، ثم يتفرجون عليك بهيئة من ليس له علـــم بشيء.

ترى، كيف علموا أني أكلم نفسي؟ لقد تجاوزوا، بالفعل، كل الحـــدود في الخبث واللؤم. رؤوسهم المليئة بالشرور ذكية لدرجة تجعل معها الشخص يختـار وقد جن عقله. إنهم جاهزون لاستخدام أي حيلة لفتح الجرح الذي فيـــك. لا يفرقون بين وسيلة وأخرى. لا يمتنعون عن أية وسيلة، مهما كانت قذرة.

.٦٠

ـــ أيضا، رسائل ذاك الرجل الغريب!

هكذا قال ساعي البريد الشاب، ويده ممدودة لفرز الرسائل، الموضوعة علـــى المنضدة، حسب العنوان.

ـــ كالعادة، جميع العناوين خاطئة. ماذا ينوي من كل هذا، يا ترى؟!

ـــ واحد وأربعون رسالة أيضا؟

سألت امرأة كانت ترتب الصحف والمجلات.

ـــ يجب أن يكون هكذا بالتأكيد، رسائله ليســـت ٤٢ مظروفـــا، ولا ٤٠ مظروفا، هي ٤١ رسالة منذ الأصل.

ـــ علام يدل العدد، الواحد والأربعون، ماذا يريد قوله مـــن خـــلال هـــذا العدد؟

ـــ الشيق في الأمر، أن جميع العناوين المكتوبة لها علاقة بالعدد ٤١، الشـــارع رقم ٤١، المترل رقم ٤١، المبنى رقم ٤١، المحل التجاري رقم ٤١، الكتيبة رقـــم ٤١، القرية رقم ٤١ ..

دائما، ما إن يشاهد رسائله من في مركز البريد حتى يحمى بينـــــهم هكـــذا النقاش. كانوا يجوبون بوادي الظنون مطلقين العنان لمخيلتهم. كانت تـــــتزاحم

الأحكام طبق الأصول المنطقية. وكانوا يشعرون كما لو أنهم رجال التحـــري، كما في شريط السينما، وقد واجهوا قضية صعبة. من خرج بفكرة جديـــدة، لم تنطرح بعد على طاولة البحث، كانت تتجه إليه كل العيون بمزيد من التلـــهف. فكان يصبح لفترة من الزمن نجما تتوجه نحوه الأضواء في النقاش الدائر في هـــذا المكان.

ـــ لا بد أنه شخص في غاية الذكاء. فلقد جعل مني ساعي بريده الخاص.

كان يقول ساعي البريد الشاب، الذي يحمل إليه رسائله باستمرار:

ـــ الآن، حتى أوقاتنا نقضيها ببحثنا الدؤوب حول رسائله، كما أن مركـــز البريد، الذي نحن فيه، يكاد يتحول مركزا للبريد خاصا به. ليس سبب إملائـــه للرسائل، كما يبدو، سوى محاولة منه بهذه الطريقة لكي يصنع بنا، تدريجيـــا، تابعين له بشكل كامل.

أحيانا، كان بينهم من يسأله، قائلا:

ـــ لماذا لم تفكر بأن تسأله، هو بالذات: "من تكون تلك المرأة، التي تدعـــى تشينار، والتي تراسلها؟ لماذا، دائما، تكتب عنوانها بشكل خاطئ؟"

ـــ وهل لك أن تخاطب ذلك الرجل. إنه شخص غريب الأطوار للغاية. مـــا إن تنظر إلى وجهه حتى تصاب بعسر النطق. كم مرة عقدت العزم لأفتح فمـــي حتى أطبق في وجهي الباب والكلام لا يزال على رأس لساني.

ـــ ما علاقتنا نحن، وهل هناك طابع بماوين على رسائله أم لا، هذا هو مـــا يهمنا فقط.

ـــ يا لها من أمور عصية على الفهم!

ـــ ما يفعله هذا الشخص لا يمكن فهمه، مطلقا.

ـــ والتي داخل هذه المظاريف؟ ترى، في أي مضمون كتبت الرسالة؟

ـــ لم يتسلمها أحد، فبأي مضمون يجب أن تكون أيضا؟

ـــ لعلها ورقة بيضاء...

ـــ إذا لم يتسلمها أحد، فما الفرق بين الورقة البيضاء والورقـــة المكتـــوب عليها؟

ـــ كلكم، حتى الآن، أبديتم الكثير من وجهات نظر، لكن، هنالك أمـــر، لم يسترع انتباهكم.

كان أحدهم قال، مرة، معقبا، وقد قطع سلسلة أفكارهم، إذ رمقوه بنظرات متسائلة:

ـــ قضيتم وقتكم بتحليل عنوان المرسل إليه، و لم تنتبهوا إلى عنوان المرسل.

حينذاك، قد ضحك الجميع مقهقهين.

ـــ أليس عنوانه صحيحا!

ـــ إنه عنوانه، وماذا هناك من أمر هام؟

ـــ وهل اسمه بختيار حقا؟ في نظري، حتى هذا ينبغي الاستيضاح حوله. وربما يكون اسما مزورا.. بالتأكيد، له دلالة أخرى..

ساعي البريد الشاب اتخذ لنفسه قرارا بأن يجرب الحديث معه حين يذهـــب إليه، هذه المرة، برسائله، كما أفصح عن نيته هذه للآخرين.

ـــ إنه أمر جد محرج. كيف يمكن مخاطبته بهذا الكلام؟

ـــ هذا أمر لا علاقة له بعملنا.

هكذا رأى بعضهم، لكن معظمهم وافقوا. كذلك تخيلوا في رؤوسهم شـــتى الاحتمالات في كيفية رد الفعل، الذي سيصدر منه إزاء هـــذا الأمـــر. ففـــي تصورهم، يتبين الوجه البري، الجامد أبدا، الذي يرتديه ذاك الشخص الغريـــب الأطوار، أمام الباب البارد لبيته والمتآكل طلاؤه، الذي لم يطرقه إنس ولا جـــن منذ بدء الخليقة ما عدا ساعي البريد الشاب، ويجيب على مختلـــف الأســـئلة، الصادرة منهم، بهذا الشكل:

ـــ وهل كتابة العنوان الخاطئ منافية للقانون؟

ـــ وهل يعاقب بحسب القانون من يكثر من إيداع الرســـائل في مكـــاتب

البريد؟

لكن، لم تكن الحال كما كانوا يتصورون.

توقفت دراجة بريدية زيتية اللون أمام بيت الرجل الغريب. وبعدما ترجل ساعي البريد الشاب، وفتش في الحقيبة عن الرسائل، كما راجع في ذهنه، برهة، كيف سيجري الحوار معه، دلف إلى المبنى وطرق الباب.

ـــ طق.. طق.. طق..

كان داخل المبنى مظلما كالمغارة، وحتى صوت الطرقات على الباب تراءى لساعي البريد الشاب كصدى، مفعم بالرهبة، ينبعث من داخل المغارة. فهو، لسبب ما، كان يغمره إحساس غريب من نوعه، حينما يقف أمام هذا الباب. ما كان يعرف أن هذا الباب لم يتلق طرقا، أبدا، منذ سنين لا عد لها، سوى تحت أصابعه هو. ولحظة أن يقف، طارقا ذاك الباب العاري من الدهان، كان يخترقه شعور بأنه ما يزال منذ ولادته، وافقا هناك، أمام ذاك الباب، وأن الزمن قد توقف في مكانه بصورة غامضة، وأن لا حدث هناك، على الإطلاق، في الكون سوى وقوفه المستمر في ذات المكان. وكان يستعجل الخروج فورا من هنا، لينجو بروحه سريعا من هذا النوع من الشعور. أما المظهر البارد لصاحب البيت فقد كان يلوح أمامه، بعد جهد جهيد، كما لو تقصد ذلك.

هذه المرة، حالما انفتح الباب، سأله ساعي البريد الشاب دون أن يناوله الرسالة، حتى لا يطبق الباب أمام وجهه، قبل أن يفتح فمه بسؤال:

ـــ لماذا تعاود مراسلة شخص لا يتسلم الرسائل أبدا؟

أحس ساعي البريد الشاب بالامتنان من الجرأة التي طرح بها سؤاله.

ظل صامتا فترة طويلة، مثبتا عينيه اللتين لا نور فيهما، على ساعي البريد الشاب. كان وجهه جامدا، أيضا، على ذات المنوال. ولا رفت أهدابه. أحس ساعي البريد الشاب بقليل من الإحراج من وقفته المتصلبة كهذه، المخترقة فيه، كالصنم. لكن، لم يستطع إيجاد حل لتحسين هذا الظرف غير الملائم.

ـــ وهل تكتب تلك الرسائل بالرغم من معرفتك بالعنوان الخاطئ؟

لم يحدث أي تغيير، ولو طفيف، في وجه ذلك الرجل. كان ما يزال يرمقه بالنظرة نفسها، التي لا تتغير. كان يشبه تمثالا، بالفعل.

ـــ أم، تراه، لا وجود في العالم لهذا الشخص، الذي تراسله؟

كذلك، لم يحرك الرجل ساكنا. يبدو أنه ما كان يسمع هذه الكلمات. إن وقفته المحملقة هذه، كانت بإمكانها أن تجعل من ينتظر منه أي جواب، يتهالك في الأخير خائر القوى.

ـــ كما يبدو لي، أنت مدرك أن كل رسالة تكتبها ستعود، فهل تبعث بها كيلا يتسلمها أحد؟!

ما كان يبدو أن هذه الكلمات تتلقفها أذنا ذلك الرجل. تصبب ظهر ساعي البريد عرقا، حتى التصق به قميصه الداخلي. رغم ذلك، استمر، أيضا، في حديثه:

ـــ أنت متأكد، تماما، من عدم وجود من سيتسلم رسالتك. وكما أعلم، صار لهذا سنوات عديدة.

لقد بلغت وقفة ذاك الرجل، محملقا بصمت، حدا لا يمكن فيه تحمله. شعر ساعي البريد الشاب بعرق بدنه يبلغ حتى أطراف أصابعه.

ـــ لما أظهر أمام باب منزلك، هل فكرت، ولو مرة، بأن رسالة وصلتك من مكان ما؟ كلا، لا يخطر ذلك في بالك.. في علمي، أنت لم تتسلم، ولو مرة طوال هذا العمر، رسالة من أية جهة.

أحس الفتى بأن جعبته قد فرغت من كل الأسئلة، فتطلع إليه، ساكتا، ينتظر الجواب. كان يقف جامدا، كأنه مشلول عن الحركة تحت تعاويذ عفريتة شريرة، ولا الفتى بمقدوره التأكد كم انقضى من الزمن، وهما يحملقان ببعضهما على تلك الحالة. في الأخير، قد نفد صبره في هذه المواجهة البليدة، فاستدار مغادرا المبنى بأقصى سرعة. وما إن بلغ العتبة المضاءة للمبنى حتى أرعبته مفاجأة

لم يكن بالحسبان حدوثها. فلقد خرج ذلك الرجل متتبعا خطواته.

ـــ لماذا تلحقون بمؤخرتي، ولا تتركونني وشأني؟

حينما سمع ساعي البريد الشاب، الرجل، وهو يتكلم، سرعان مـــا حـــاول يشرح:

ـــ عفوا، لقد سألتك أكثر من اللازم. لا أبيت بسؤالي هذا على أية نوايـــا سيئة. إنه لأمر متعب بالنسبة لك، أيضا، أن تبعث بهذا العدد من الرســـائل، ثم تعود هي مرة ثانية... حتى من منا يتمنى أن تعود رسالته، بدون الوصـــول إلى صاحبها حسب العنوان المرسل إليه...

قاطعه الرجل الغريب، محتدا:

ـــ ماذا تظنون شخصي؟ هل تعتقدون أنني غبي للغاية، و...أبله؟

تسمر الفتى، ساعي البريد، في مكانه مذهولا.

ـــ ليس خفيا عني ماذا تفكرون! أنتم على علم بكل ما يجري، ثم، تتظاهرون بأن لا علاقة لكم بشيء، حتى إنكم توجهون لي أسئلة، إذ، أنتم في واد، وهـــي في واد آخر. تجنون من الفرح حين تظنون أنكم جعلتموني في حالة يرثى لهـــا، ذلك بعد أن تسلحون نظراتكم بالوقاحة، وتحدقون إلى داخل عيني... كـــم أن قلوبكم طافحة بالسموم!

وقف ساعي البريد الشاب، فاغرا فاه، لا يعرف بماذا يجيب، ولم يتخلص بعد من الذهول الذي أصابه. ماذا يمكن أن يقوله، أيضا؟!

ـــ ما زلتم تراقبونني خفية على الدوام.. كلكم مجانين حتى العظم.. تحســـون بأنكم تتلذذون بمثل هذا السلوك المنحرف، الذي تسلكونه بلا حياء. تراقبـــون تحركاتي كاملة، كل شاردة منها وواردة.. فهل تظنون أني لا أعرف؟ أليـــس واضحا من نظراتكم، ومن كل ضحكة صادرة منكم، أنكم فاعلون مثل هـــذه السفالة؟ هكذا أنتم جميعا، فليس هنالك من أحد لا يتربص بي خفيـــة. ولقـــد أصبحت، أنا فقط، شغلهم الشاغل. أنا عالم بذلك، وأنتم، أيضا، تعلمون بـــأني

قد استطعت أن أدرك، فلهذا السبب، تسرون أكثر..

تجمد ساعي البريد الشاب في مكانه، مثل خازوق دق به في الأرض. أما هو فاستدار، حيث ينبض وجهه المزيت وترتجف شفتاه، وسرعان ما ولج في المبنى.

عندما طرق الفتى، ساعي البريد، مرة أخرى، بعد مضي بضعة أيام، هذا الباب، الذي أبدا لم يطرقه أحد سواه، والذي لا ينتظر من أحد سواه أبدا بأن يطرقه، لم ينفتح أبدا. دس ساعي البريد الشاب، الرسائل، من تحت الباب. فهو، الآن، لن يفتح هذا الباب، لأن الباب قد طرقه الآخرون كذلك، في نهاية المطاف..

لقد ألقى رجال الشرطة القبض عليه. هذا الخبر لم يعلم به ساعي البريد الشاب، إلا بعد انقضاء الكثير من الأيام.

.٧.

اسمها تشينار!

اسمها تشينار، بالتأكيد!

هكذا توصلت، أخيرا، إلى حكم نهائي. وقد انتشلت صورتها، في النهاية، من بين صور، لا عد لها، غارقة في ذاكرتي. كانت، في مخيلتي، ما تزال تتطلع بنظرات موحية، وهي تضحك، واقفة في أسفل الدرجات لمبنى المدرسة. إن هذه الضحكة والنظرات الموحية أخذت تتشكل في مخيلتي بمزيد من الوضوح، حتى بدأت أفهم، الآن، عالما شاسعا من الإشارات الخفية، كامنا وراء تلك الضحكة، بعد مرور زمن طويل ما يقارب الثلاثين سنة. وبالرغم من أن لها جفنين مبطنين، كانت عيناها كبيرتين ومدورتين.

أخذت صورتها تشعشع، فجأة، كضوء الشمس. كما قلبي أضاء، ولأول مرة، كما تشرق قلوب التابعين لمذهب ديانا على حين غرة. لكنني لم أطلب لنفسي مثلهم روحا طاهرة. فقد حدث هذا الإشراق بهذا القدر من المفاجأة،

حتى أنا نفسي لم أستوعب حجم التحولات في كياني، وبقيت أروح أغدو شارد الذهن لعدة أيام.

أجل، هي اسمها تشينار. هذا الاسم نادر الاستعمال لدى الأويغور. وربما هي أوزبكية... لها جفنان مبطنان... صحيح، إذن، يمكن أن تكون قيرغزية... على كل حال، اسمها تشينار.

ترى، ألم يحدث وصادفتها، ولو مرة، منذ ثلاثين سنة؟ لعلني لم أصادفها، بالفعل، منذئذ، أو لم أستطع التعرف عليها وإن كنت قد صادفتها. وربما كان محياها حاضرا بين الوجوه التي لا عد لها، والتي تراءى لي أنها ليست غريبة عني حينما رأيتها.

ضاع مني عمر طويل، وأنا، منذ سنوات عديدة، أستجدي من الأخريات حبا، وأعيش في نفسي أملا خفيا. وقد أمضيت حياتي، وحيدا، كما لو لم يبق في هذا العالم جنس النساء. كنت مقتنعا بأنه ليس هناك في هذا الكون من امرأة يمكنني التعرف عليها. لم يشرفني وحدث أن تعرفت على إحداهن أبدا. فأنا أستغرب ذلك. إن فرصة كهذه لم تكن أبدا من نصيبي. حتى المديرية التي أعمل فيها ليس هناك من امرأة عازبة، ولا حتى أرملة، كما لم تكن تأتي إلى الحارة، حيث أسكن، امرأة عازبة لطيفة تحب أن تكلمني. لا أستطيع أن أخرج بنتيجة، وأنا أفكر بأي طريقة يتعرفون فيها على بعضهم، ويتزوجون. في ما مضى، حاولت معرفة ذلك من أفلام السينما، ففي الأفلام، بينما يسير بطل ذكر، تتزلق على الأرض بطلة أنثى كانت تمشي أمامه. فيركض نحوها البطل ويسندها، أو حينما تصادف البطلة زمرة من الأوباش، يظهر البطل، فجأة، بينهم، فينقذها من براثنهم. وهكذا يتعرفان على بعضهما، يتحابان، ثم يتزوجان. فكنت أتمنى، دائما، وأنا أمشي في الطريق، أن تهوي إحدى النساء على الأرض. إن فصل الشتاء في هذه المدينة يطول كثيرا، وتتساقط كمية ضخمة من الثلوج، ومع أن الطرقات زلقة تغطيها طبقة سميكة من الجليد، لم أصادف امرأة قد انزلقت

عليها. سئمت، أخيرا، وأنا أبحث من حولي، حالما أخرج إلى الشارع، عن نساء سيسقطن على الأرض. وهل أصبح جميع الذكور في هذه المدينة مخنثين، حتى إني لم أصادف رجلا، في أي مكان، يتحرش بامرأة. إني أشعر بالأسى الشديد حيال هذه السنوات الثلاثين. فلقد تآكلت كل تلك السنين، وأنا أقضمها من عمري وحيدا. لكن، لم أتذكر، ولو مرة، أن هناك فتاة في هذا العالم كانت تحبني إلى هذا الحد. فأنا، بسبب بلاهتي الشديدة التي كنت أتصف بها، أظل ألعن رأسي هذا، الذي لا فائدة ترجى منه. لعلني صادفتها، أيضا، مرات عديدة، بعد ذلك الحين. ولكن، لم أعرفها بالتأكيد. ولعلها تعيش معي في هذه المدينة ذاتها حتى هذه اللحظة، كما تصادفني باستمرار حتى هذه اللحظة. لعلها تطلعت إلي مرات عديدة أيضا، وبتلك النظرات الموحية أيضا، في حين لعلني لم أستطع تبيان ذلك. فكم تكون قد تألمت لذلك! وربما لم أصادفها من جديد أبدا، ربما تعيش في قرية نائية. ترى، كيف هو عنوانها بالضبط؟ وقد تذكرت اسمها أخيرا. أجل.. تلك الفتاة التي كانت تركض وراءها قالت لها وهي لا تزال تضحك:

ـــ جعلته يسقط يا تشينار!

وربما لم تقل ذلك.. لكن، على كل حال، نادتها بتشينار. هي اسمها تشينار، بالتأكيد.

أنا متأكد من أنها تحبني، لماذا هذا لم ألاحظه في ذلك الحين، فأنا لم ألاحظ، بتاتا، في وجوه النساء ما يشبه مظهرها في ذلك الحين، حيث كانت تتطلع إلي بضحكة مليئة بالإيحاء. إنها تود أن يقرأ الآخر معنى نظراتها، لكني ما كنت إلا أميا، لا أعرف أن أتهجاه. ولأني لم أر إلى الآن مثل تلك الحالة لدى امرأة أخرى، فلهذا السبب فقط، فهمت، من ثم، أنها كانت الحب.

بذلت جهدا طويل الأمد لأميز صورتها بين الصور اللا متناهية التي تقبع في ذاكرتي. وفي الأخير، اتخذت صورتها في رأسي شكلها النهائي. عندما أجلس

بشأنها، كنت أفكر ساعات وساعات في النهاية، حينما فرغت من تشكيل صورتها في رأسي بشكل كامل، كنت غارقا في أريكة عتيقة في بيتي، وأنا أفكر بها، مندفعا بكل خلاياي. بطيئا، بطيئا، بدأت صورتها تتضح أمام عيني. كانت مبهمة للغاية، ثم أخذت في الوضوح رويدا، رويدا. اغرورقت عيناها بالدموع. كانت مشتاقة إلي كثيرا. مددت ذراعي نحوها. لم تكن يداي تلامسانها مهما حاولت. كانت منتصبة فوق تل مرتفع. لاحظت أنني كنت غارقا في الماء الموحل حتى رقبتي، حيث أخذ جسدي يتجمد من الماء البارد كالجليد. ما فتئت تمتد إليها ذراعاي، أما هي فكانت تبكي دون توقف. إذن، الماء الذي أغرق فيه كان دموعها، فكرت. رويدا، رويدا، أخذت أغرق. وفي الأخير، بدأت أختنق تحت الماء البارد كالجليد. وحينما لوحت بيدي، بشدة، وبكل ما لدي من روح، اصطدمت بشيء صلب. استفقت مذعورا. فقد اصطدمت يدي بالمنضدة الموضوعة قرب الأريكة. بعدما فتحت عيني، شعر قلبي بالإحباط الشديد وأنا أتذكر. فما عدا الجفنين المبطنين لتشينار، في حلمي، امتزج وجهها بوجه إحدى النساء البدينات، كالبرميل، التي تعمل في الدائرة نفسها حيث أعمل.

لا بد أنها ما تزال تحبني حتى هذه اللحظة، كما أنها، دون شك، لم تستطع نسياني، ذلك أكيد.. أكيد.. ولعلها تزوجت من أحدهم، لكنها إذا تتسلم رسالتي فبالتأكيد ستنفصل عن زوجها على الفور، وربما قد أنجبت، لكن، ما دامت تستطيع أن تضحي بحياتها من أجل الحب المقدس، فكيف لن تضحي بأولادها، بزوجها، هكذا هو الحب الحقيقي. وهل قليلة تلك الأمور، التي تحدث في المجتمع، إذ تتفكك حتى الأسر التي قد أصبح لأربابها أحفاد؟ هكذا يفعل بعضهم حتى من أجل إمتاع النفس، فلا أظن أنها لا ترغب بذلك.

منذئذ، ما أزال أكتب لها دون توقف. وأبعث بالرسائل إلى العناوين المختلفة على الدوام، وحسب توقعاتي. فأنا مستعد لأن أبعث برسائل إلى جميع العناوين

لجميع البشر القاطنين على هذا الكوكب... عندما لا أترك عنوانا في هذا العالم إلا وأراسله، فمن المؤكد أنها ستتسلم رسالتي، إن كانت على قيد الحياة.

.٨٠

كيف استطاعوا معرفة أسراره بالتفصيل؟

بعد التفكير الطويل حول كيفية متابعة الآخرين لأسراره الخاصة، عقد العزم، أخيرا، بكل ما يملك من إرادة، لاتخاذ قرار حاسم بأن يزيح جميع الأشياء الموجودة في البيت من مكانها، ويفتش، هذه المرة، بشكل كامل ونهائي.

فلقد التقط سمعه من أفواه الآخرين، أكثر من مرة، بعض الأقوال المتشابهة في مضمونها مع بعض المضامين لكلماته، التي كان يكلم بها نفسه. فلو لم يسمعوا ما قلته وأنا أتحدث مع نفسي، فمن أين لهم معرفة هذه الأقوال؟ مؤكد أنهم قد سمعوها. هكذا كان يفكر. لقد ضاق ذرعا من تصرفات الناس هذه، التي تعدت حدودها. وفي الأخير، بات لا يستطيع، نهائيا، مغادرة البيت إلى العالم الخارجي. لأنه ما كان بمقدوره تحمل مشاهدة النظرات الغريبة، التي يرمقه بها جميع الناس.

ـ كيف استطاعوا استراق السمع إلى كلماتي، كيف؟ـ كان يسأل نفسه باستمرار. ما أقذر أساليبهم، ما أذكاهم من بشر!

أحس، في الأخير، وكأن عقله أضاء فجأة. ـ وجدتها!ـ فكر. إنهم لا بد يستخدمون جهاز تنصت خفي.

وهكذا، لقد فتش لعدة أيام، دون هوادة، كل شبر من زوايا البيت، لكن، لم يتم العثور على جهاز التنصت، ولم يبق حيز، في البيت، لم يطله التفتيش. مرر أصابع يده على حمالة الستائر فوق النافذة، فإذا بيده غبار أسود. حتى نقاط توصيل الكهرباء في الجدران لم ينس فتحها وإلقاء النظرة عليها. كذلك قام بتفكيك جهاز التلفزيون القديم، وفتش فيه، ظانا منه أنهم ربما وضعوه في

داخله، وفي المحصلة، لم يكن هناك ذلك الجهاز اللعين. ولم يعثر عليه في أي مكان.

فك أقمشة الأرائك عن هياكلها الخشبية، كما مر بنظراته متفقدا في داخل الأغطية كلها. عمت الفوضى داخل البيت كما لو اقتحمه اللصوص، ولم يعثر أيضا على شيء.

تطورت التكنولوجيا في هذه الأيام بشكل لا مثيل له. لعل ذاك الشيء صغير للغاية، ربما لم تستطع نظراتي التقاطه، حتى لو كنت قد صادفته. فكر أخيرا، ثم كنس البيت كله. تطلع حوله، وهو يكنس البيت، وتأكد من أنه لم يبق في بيته شيء لا يختلف عن الزبالة. فقد تحول داخل البيت إلى ما يشبه المزبلة بالفعل. والعثور بينها على ذاك الشيء كان أكثر استحالة.

.٩٠

سوف أعترف بكل شيء، كفاكم إلحاحا علي. أنا لص قد اعتاد على السرقة بالفعل. أمارس السرقة يوميا. يرى بعض الكتب المتعلقة بالحياة الجنسية، على ما أذكر، أن على الزوجين أن يجتمعا مرة في كل يومين كحالة طبيعية. وأنا كذلك أقوم بالسرقة مرة في كل يومين. ولهذا السبب، ينبغي النظر إلي على أنني شخص ما زال متماسكا إلى حد بعيد. وكما أن كل إنسان ينبغي عليه إشباع غريزته الجنسية مرة في كل يومين، فأنا أيضا لا يمكنني إلا أن أقوم بدفع الشعور بالخوف، إلى أوجه، في كياني، مرة في كل يومين. ففي رأيي، لا تختلف السرقة عن الانفعال الجنسي. ليس بالإمكان أن توصف بالكلمات متعة الشعور بالخوف، الذي يظهر في كياني حين أمرر يدي في جيب الآخرين، وليفهم ذلك إنسان آخر، يجب عليه هو أيضا أن يتذوق، لا محالة، طعم مثل ذاك الشعور.

حتى أنا لا أدري منذ متى وأنا أندفع بوحشية خلف ذاك الشعور. أتمنى أن أبلغ ذروة مثل ذاك الانفعال، ولو مرة. ولا أعرف أين تكون ذروته، لعل هذا

النوع من الإحساس يصعد إلى ذروته حين يموت الإنسان، وربما عندئذ يحس الإنسان وقد تلاشى من النشوة حقا. في الفترات اللاحقة، أصبح ليس بمقدوري أن أكتفي، وحسب، من التلصص أمام نوافذ الآخرين، وأنا أحوم في غياهب الليل من شارع إلى شارع. فقد بات الانفعال الذي تثيره تلك الأشياء المقززة لا يستطيع إشباع كياني. أخذت أغوص أكثر عمقا في جسدي ومشاعري. ودوامة الأحاسيس في وجودي بدأت تبتلعني. بقيت زمنا جد طويل أصارعها، إذ حاولت، بكل نبضة في دمي، الهروب بجلدي من الوسواس الذي لا حدود له للمشاعر في كياني، ولكن بلا فائدة. فغرقت تماما، في النهاية، تحت أمواج متلاطمة لكينونتي، وقد هلكت. لقد انتهيت إلى عبد، في نفسي، أكثر ذلا لجسدي. أصبحت أكثر توحشا. عمي بصري وأصاب الصمم أذني. أمسيت لا أرى وأنا أبصر، لا أسمع وأنا أنصت. فلقد بلغت هلاكي التام أمام وسواس جسدي. أقصد الشارع لحاجة في كياني وأنا أعزل من وعيي. أندس في الحوافل، في زحام الناس ويدي المرتجفة تتوغل في جيوب الآخرين...

هل سألتني كم هو مجموع المرات التي قمت فيها بالسرقة؟ لا أعرف عددها كل ما أعرفه فقط، هو أن رغبة قوية تكتنف كياني. فإن هذه الرغبة التي لا تمكن مقاومتها تنتفض بشكل رهيب لا حدود لسطوته، حيث تشتد دقات قلبي بدون سابق إنذار. فأنهض من مكاني منتفضا وقد اشتعلت النيران في كياني، فأخطو خارجا لممارسة السرقة.

أنشل ما تصله يدي. إن أكثر ما يغذي التوتر لدى الشخص هو القيام بالسرقة داخل الحافلة العمومية... أوه... يأخذ الشخص كفايته من النشوة حقا.

أنا شخص طيب القلب إلى حدود قصوى. قلبي مفعم بالمحبة والإحسان تجاه الآخرين. فأنا رجل لا يحتمل وطأة ما تراه عيناه من أوضاع محزنة للآخرين. وحين أشاهد أحدا يبكي، أخرج عن طوري بعدما أحملق به، حيث يمتلئ قلبي

بالأسى، وإن كنت لا أعرفه، وإن كنت لست متأكدا لماذا يبكي. والحالة هذه، فكيف يمكن أن يكون لدي حب النفس أو الرغبة بالحصول على ممتلكات الآخرين؟! وبالإضافة إلى ذلك، يحميني من الجوع مرتبي الذي أحصل عليه مقابل عملي في الدائرة. ليس مطلبي لشروط المعيشة عاليا. يكفي أن أشبع. أمقت الذين يجمعون أموالا، والأثرياء. ولأنهم لم يجدوا أي ذريعة لحياتهم في هذا العالم، فيتذرعون بجمع المال كمبرر للعيش، فحسب. إنهم بشر غير طبيعيين تماما، فهم يعتقدون بأن لهم معرفة لما يفعلون، في حين لا يدركون كنه أفعالهم في الحقيقة. ليس لي، أبدا، غاية جمع المال أو الاغتناء فيما أقوم به من عملية السرقة. فلست رجلا غير طبيعي أو مريضا أمثالهم. إنني أدرك ما أفعله. أحقق لجسدي مطالبه وأشبع رغباته، مثلما يشبع الآخرون مطالبهم الجنسية. أنا لا أتصرف هكذا إلا طلبا للانفعال الرهيب في تلك اللحظة وأنا أسرق. والشعور بالخوف، المنبعث حينئذ في كياني، يزلزل قلبي، فيرتجف جسدي كله بعنف تحت تأثير الانفعال، هكذا ينتظر مني، دائما، كياني هذا، المتعطش إلى انفعال، أن أجعله يمتص كفايته من النشوة.

أيها الشرطي الشاب، لا تستغرب كثيرا أقوالي هذه، لماذا لا يقبلها عقلك داخل حدود المعقول؟ وهل نادرون في العالم من افتتنوا بالشعور بالخوف؟ كل إنسان يستمتع بالشعور بالخوف، لكنه يخشى صعوده إلى ذروته. على سبيل المثال، أليس خطرا ذاك القطار السريع الدائر، الذي يركبه الأولاد في حدائق الأطفال؟ ولماذا يحبه الأولاد؟ لأنهم يتلذذون بالخوف. وماذا عن متسلقي الجبال؟ فهل جنوا؟ ماذا، هناك، في قمم الجبال الخالية إلا من الموت والطبقات الكثيفة من الجليد والثلوج؟ علام يريدون الحصول وهم يتسلقون تلك القمم؟ إنهم يتسلقون، والأمر واضح، لأنهم يستمتعون بالخطر. كلما كان الأمر خطيرا، وكلما كان مخيفا، لاستمتعوا أكثر، وانتشوا أكثر. لماذا لأفلام الرعب ذاك القدر من التشويق، والإثارة لانتباه الآخرين؟ لأنها هي كذلك يزلزل كيلن

الآخرين من الخوف. قل لي الآن، لماذا كل ذلك يقبلـــه العقـــل، واســـتمتاعي بالشعور بالخوف خارج حدود العقل؟!

أحب الخوف. أود أن أتبول من الخوف. لقد جربت ذلك مـــرة أو مرتـــين فقط. إن أعنف ما أهفو إليه هو رؤية نفسي أتبول بلا شعور. حينمـــا أتبـــول هكذا، وحسب، أحس بأني انتشيت تماما. في أوقات أخرى، لما أحس بـلخوف إحساسا طفيفا وأنا أسرق، كان يزداد كياني أكثر تلهفا إلى هـــذا الشـــعور، ويجعلني أكثر نأيا في الضياع. وحدها تلك اللحظة، حيث أتبول من الخـــوف، تمنحني إحساسا بالارتياح وبأن روحي خفيفة للغاية. ثم أحس، في تلك اللحظـة بالذات، بأن الحياة رائعة بالفعل، كما يهدأ الوسواس قليلا في كيـــاني، تاركـــا إياي أنا وشأني. فأعود إلى البيت، وسروالي مبلل، وأرتمي متمددا مع الإحسـلس بالراحة اللا متناهية.

لا أدري لماذا أنا مدمن هكذا على التبول من الخوف. في ذلك اليوم الـــذي يعود إلى ما قبل ثلاثين سنة، اليوم الذي صادفتها، كان بطني مليئا بالماء. حـــتى أنا لا أعرف كم شربت من الماء، جالسا على ضفة تلك الساقية التي تعبر أمـــام البوابة الخلفية للمدرسة الإعدادية، والتي تجري صافية حينا، وموحلـــة أحيانـــا أخرى. كلما كانت معدتي تجرحني من الجوع، كنت أشرب الماء باستمرار أملا في أن تكف قليلا عن إيلامي. كان ماء الساقية موحلا قليلا في ذلـــك اليـــوم، فكان السيل بسبب البطء في جريان المياه، وعدم اندماج الماء المتاخم للضفـــاف في السيل وانسيابه السريع، كان يصفى قليلا. في البعيد، مجموعة من الأطفـــال كانوا يلعبون في الماء عراة. لم أنو عبورهم إلى المجرى الأعلى، لأنه سيكون أمـــرا مضحكا. وحتى لو عبرتهم إلى أعالي السيل لأنهم قد لوثوا المياه، كنت متـــأكدا من أنه حتى المجاري العليا للساقية تعج بالناس الذين يسبحون. فلقد تذكـــرت، أكثر من مرة، مقالا للأسلاف يرى أن الماء حلال بعد تقلبه سبع مرات ولـــو كان وسخا.

شعرت بالحزن العميق وأنا أتذكر خبزي الذي سقط في الماء الصباح الباكر. كانت أمي قد وضعته في أسفل حقيبتي، أي تحت الكتب والدفاتر كيلا يسقط. لا أدري كيف، فقد صعد إلى أعلى الحقيبة. يظهر أنه انقلب إلى فوق، حينما فتشت في الحقيبة بحثا عن القلم، وأنا قادم في الطريق مفكرا فيما إذا أخذت معي القلم أم لا.

وددت، أنا أيضا، أن أنزل في الماء مثل الآخرين وألعب. لكنني حينئذ شعرت بأن بطني قد امتلأ بالماء. وقد أحسست بكل جسمي متثاقلا، فلم أرغب بتاتا بالنزول في الماء للعب. فكرت بأنني قد أصبحت شبيها بالإنسان الذي رمى بنفسه في الماء منتحرا. وفي اللحظة التي انتصبت فيها على قدمي، أخذت أترنح ورأسي قد أصابه الدوار. تمالكت نفسي، ثم خطوت باتجاه فناء المدرسة متكاسلا. في كل خطوة، كنت أسمع ارتجاج الماء في بطني.

حينما وصلت أمام درجات مبنى الدراسة، خرجت راكضة فاصطدمت بي. نهضت عن الأرض بكل صعوبة. كنت أحس برأسي يدور ويدوخ، وبركبتي ترتجفان، وببطني مليئا بالماء حتى حنجرتي. كان هذا الماء يبالغ في تعذيبي. يبدو أنني راجعت بعض الماء دون أن أحس بذلك، في حين لم يسعفني ذلك ولو قليلا، ففي تلك اللحظة بالذات، تبولت. سال البول دافئا من فخذي حتى الركبتين.

من شدة سقوطي على الأرض، كان جسمي يؤلمني بقوة. انقطع نفسي برهة من الزمن. ففي ذلك الحين، حيث تجاوز الألم في جسمي حدود التحمل، أحسست بنفسي أتبول، في حين لم أستطع التوقف عنه. نظرت إليها حينئذ فرأيتها تضحك متطلعة إلي. لمحت جفنها المبطن بوضوح. لما تبولت من الخوف للمرة الأولى، غمرني شعور جد لذيذ. أحسست وكأني عدت من جديد إلى ذلك العصر. وكانت هي، بنظرة مليئة بابتسامة موحية، تقف أمامي.

تشينار...

هي اسمها تشينار.

كانت تقف متطلعة إلي بابتسامة موحية. أتمنى أن أرى نفسي وأنا أتبول من الخوف دائما.

وهل فهمتم الآن، يا سادة، الغاية التي أسرق من أجلها؟ إنه أمر بسيط جدا.. بسيط للغاية، بسيط إلى حد الإزعاج.. بسيط لدرجة لا يحتمل. فالمفاهيم، مثل التعقيد والغموض، كلها أوهام اختلقها البشر!

إذا ما انعدم في حياة الإنسان شيء يجعل القلب يرتعش، فكيف يمكن للحياة أن تحتمل؟!

أكتب إليها الرسائل باستمرار، أنتظر منها الجواب بكل لهفة، كيف علي أن أقضي هذه الأوقات، التي تطول، تطول؟ ما أطول الحياة! لقد وجدت الحيلة التي يمكن بها أن أقضي بسرعة هذه الأوقات الطويلة، الطويلة، ألا وهي السرقة...

نعم؟ تسألني ماذا فعلت بالأغراض والنقود التي سرقتها؟ ألقيها أرضا حالما أنتهي من سرقتها، أرميها على الأرصفة، لم أرض على نفسي شيئا حراما طوال حياتي. يا له من عار أن تنفق مال الآخرين!

صحيح، فقد نسيت أن أذكر لكم أمرا آخر، عندي شيء آخر اعتدت عليه منذ سنين طويلة. هو أن أجوع نفسي. ليس بسبب عدم قدرتي على تناول الطعام، أو عدم توفر الشهية لدي، أو لأني لا أملك المال الكافي لشراء الطعام، أو لا أجد ما يسد الرمق! إني أشعر بالمتعة حتى من تجويع نفسي... تقرقر معدتي، أحيانا، من شدة الجوع. أشرب ماء دون توقف. يتدلى بطني ممتلئا بالماء. أروح أغدو وأنا أسمع ارتجاج الماء في بطني، أرهف سمعي باهتمام إلى صوت الماء في بطني. أنصت إلى ذاك الصوت طويلا، طويلا، أنصت مركزا انتباهي كله في سمعي.

كنت أتمنى ألا أجد شيئا في جيوب الآخرين حين أمرر يدي فيها. لأن ما

أريده ليس نقودا أو شيئا آخر، الانفعال فحسب، الذي يصدر من الخـــوف إذ يسببه ما أقوم به من سرقة. كنت أجد الجيوب التي أمرر فيها يدي فارغة علـــى العموم. وهذا الجسد الذي يحملني، الشرير، المتعطش إلى انفعال، كان يطـــالبني على الدوام بمثل هذه الانفعالات الرهيبة. فقط، بعد مرور ذاك الانفعال، القـــلبل للانفجار، وقد حدث بلمحة برق، يهدأ كياني كما السكون الثقيل الذي يتبـــع الانفجار. لعل انفعالا بين تلك المرات قد مر، قاصفا كالبرق، محدثا في إصابـــة، فقد تهالك كياني، حينئذ، وكأني لا أملك القـــدرة علـــى مواصلـــة التفكـــير والتخيلات الشريرة، أشعر بنوع من التعب، وبنوع من الراحة، اللا متنـــاهيين، المعذبين، في روحي.

بت أمقت كياني يوما بعد يوم، لكن، لم يكن بوسعي تحديه. وفي النهايـــة، وبتلك الحالة من الرضوخ، غدوت عبدا له ضعيفا. إن جسدي قد نسف عقلي، فالعقل، الذي اعتقدت بأن له هذا القدر من التسامي والقدســـية، تحـــول، في الأخير، إلى ما هو غير صالح لشيء، أي إلى حطام.

إذن، قولوا، ماذا سأفعل، والحالة هذه، بما أسرق من الآخرين من أشياء؟ إنني أسرق كل شيء.. أحيانا، يخرج بيدي نقود، بضعة يوانات أحيانا، وحتى بضعة ماوات، وأحيانا عدة مئات من اليوانات، ما إن أسرقها حتى ألقي بها أرضا. مـــا حاجتي إلى تلك الأشياء؟ ما أحتاج إليه هو وحده ذاك الانفعـــال المنبعـــث في حينما أسرق! يخرج بيدي أحيانا بطاقة الهوية للآخرين.. أحيانا أدوات التجميل للنساء.. رزمة من الأوراق الفارغة أحيانا. آخذها معي كلها لألقي بها أرضـــا. حدث أن يخرج بيدي أحيانا رسائل للآخرين. لكني وحتى هـــي لم أحـــاول قراءتها، لأني أمقت بشدة مراسلة الناس للناس، حالما أراهم أشـــعر بالغثيـــان. أستطيع الاستمتاع بكل أنواع المشاعر. لكني لا أستطيع الاســـتمتاع، أبـــدا، بالشعور بالمقت. لم تصلني في حياتي رسالة من أحد، لذا، أمقتهم. أكرهـــهم، ألعنهم.

.١٠٠

عندما سيق إلى مخفر الشرطة، وفتح معه التحقيق، لم يعترف في البداية بـــأي شيء.

إن باب بيته، العتيق، المتآكل طلاؤه، والذي لم يطرقه أحد ســـوى ســـاعي البريد الشاب، قد تلقى طرقات الآخرين لأول مرة في ذلك اليوم.

ـــ طق.. طق.. طق

عدة مرات طرق الباب. كان يفكر بأنه ساعي البريد مرة أخرى، لكـــن، لم يكن هذه المرة ساعي البريد الشاب، وإنما كان رجال الشرطة. حالما رآهـــم، أيقن على الفور ما الذي يجري.

في اللحظات الأولى، حاول مجادلتهم بطريقته الخاصة، نافيا عـــن نفســـه أي اتهام. ناشدهم بقوة أن يتركوه وشأنه.

كان قد أدلى الناس بإفادتهم أمام رجال الشرطة لمرات عدة، محاولين إسعافهم بتحديد هيئته وملامحه. فلقد ألقي القبض عليه، هذه المرة، في ظروف تختلف عن سابقتها حين انزلق في مصيدة الشرطة وهو في مكان وقوع الجريمة.

بعدما أمضى بضع ليال في إحدى غرف التوقيف، نفد صبره إلى آخر رمـــق. كان يصيح، وهو يضرب بيديه بكل قواه على البـــاب الحديـــدي العريـــض والسميك لغرفة التوقيف. كان يقرب فمه من الفتحة الصغيرة للباب الحديـــدي، ويصيح.

ـــ أخلوا سبيلي، اتركوني وشأني! كان لدي أمر هام علـــي القيـــام بـــه، اتركوني.. يجب أن أبعث برسالة في مكتب البريد!

كان الحارس يشتمه، ويهدده، ثم يبتعد. لكنه لم يهدأ أبدا. ولم يجـــد نفعـــا حتى ما قام به رجال الشرطة من تصرفات تأديبية، بعد أن أخرجوه، قـــائلين: "كفاك صراخا، وإذا بقيت، أيضا، تصيح هكذا، فسأضعك على الـــدولاب".

هكذا ظل عدة أيام يصارع دون توقف. حتى الطعام ما كان يذوقه. رفضه لتناول الطعام، وهو عبارة عن رغيف خبز صغير من طحين الذرة، كان يفرح المساجين الآخرين. لذا، حتى إضرابه عن الطعام لم يجده نفعا.

صارع الموقف مثابرا لأكثر من عشرة أيام، ثم هدأ في الأخير هدوءا تاما. كان لا يبرح مكانه، جالسا مثل صنم لا روح فيه. إن خاطبه آخرون فما كانوا يواجههم غير الصمت. كان وجهه الذي لا تعبير فيه صلبا كما لو صنع من الرصاص. فكان هذا الوجه يوحي بأن لا شيء يستطيع التأثير فيه، أبد الدهر، لكي يحدث فيه تغييرا طفيفا من التعبير.

رجال الشرطة كانوا يبحثون في ملفه، على قدم وساق.

كذلك، في المرات التالية، عندما استجوب، ظل فمه مطبقا لا يأتي بحركة. وحتى عيناه المحملقتان اللتان لا يرف لهما جفن كانتا جامدتين، بحيث ما كان يمكن التأكد بأي مكان هما تحملقان.

ذات يوم، بشكل مفاجئ وغير متوقع، اعترف أخيرا بكل شيء دفعة واحدة. ثم قال في الختام:

ــ أخلوا سبيلي فورا.. لدي عمل هام. يجب علي أن أبعث برسالة إلى أحدهم. لولا ذلك، لما حركت ساكنا ولو قضيت حياتي كلها في السجن. علي أن أبعث إليها برسالة!

.١١٠

ذلك الباب، البارد، المتآكل طلاؤه، والذي لم يطرقه أحد ما عدا ساعي البريد ورجال الشرطة، قد أصبح الآن لا يطرقه أحد حتى ساعي البريد.

ذلك الباب، الآن، ما عاد يختلف عن أي جدار.

الساكنون في الطوابق العليا، عندما يمرون أمام ذاك الباب، لم يكن أحدهم ليلقي عليه نظرة. وحتى بالنسبة لهم، ما كان لهذا الباب أي فرق عن الجدار.

كانت شقته تقع في الطابق الأرضي. عادة، ليس من الصعب السطو على الطوابق الأرضية من قبل اللصوص، علاوة على ذلك، إن نوافذ شقته ما كلنت تسدها شباك من الحديد، بالرغم من ذلك، وإن سطا أحد اللصوص على شقة في الطوابق العليا، لم يفكر حتى ذاك اللص بأن يدخل إلى بيته.

.١٢.

دار الزمن دورته، وعاد إلى العصور السالفة ما قبل الثلاثين سنة أو أكثر. إنه ما يزال واقفا على ضفة تلك الساقية، التي تعبر قرب بوابة خلفية للمدرسة الإعدادية.

الماء في تلك الساقية كان يجري موحلا أحيانا، صافيا قليلا أحيانا أخرى. كان جالسا على ضفة الساقية، يشرب الماء الموحل للساقية، دون توقف، بكلتا راحتيه.

معدته كانت تجوع بشدة. جسده تجرحه سكاكين الجوع، وصدره يهلكه الغثيان، ورأسه يدور من الغثيان. كان يثق بلا حدود بإمكانية إرضاع الجوع الذي في بطنه، ولو قليلا، بالماء. أثلج الماء قلبه، لكن جسده تراخى كالوحل وتثاقل، وصدره ازداد فيه الغثيان. أخذ رأسه يدور. تمالك، في الأخير، فارتمى إلى الخلف، متمددا، يتطلع إلى السماء فترة من الزمن. في السماء، كانت الشمس تلمع بخفوت مثل قطعة جليد متجمدة في طست مليء بماء الغسيل.

حتى هو لا يعرف كم زمنا تمدد عند ضفة الساقية.

نهض، ووضع على كتفه حقيبة، قديمة، ممزقة إلى خرق، ليس بالإمكان أبدا معرفة لونها الأصلي بسبب الوساخة المتراكمة عليها وهي مرمية بين التراب والزبالة، ثم خطى خطوة هنا، وخطوتين هناك، متجها إلى داخل المدرسة.

كان يسمع من بطنه، المليء بالماء، صوت ارتجاج الماء: "شلق.. شلق".

أوصلته خطواته البطيئة أمام مبنى الدراسة. فهذا المبنى، الذي تملكه أقدم

مدرسة في تاريخ هذه المنطقة، كان كما هو، لم يتغير.

ما إن وصل أمامه حتى رن الجرس، وتدفق من داخل المبنى حشود الطلبة. ذهب الفتيان في سبيلهم، دون أن يلتفتوا، حتى، إلى هذا الرجل الغريب، الذي كان يتطلع نحوهم.

ـــ هل صحيح ما يقال إنه قد أعلن وقف التدريس؟

سأل أحد الطلبة بعدما أوقفه، فلم يفهم ذلك الطالب ما قيل، حيث وقف يحدق به برهة من الزمن وهو مندهش، ثم أجاب:

ـــ لماذا وقف التدريس؟ ولم تمض حتى بضعة أيام لبدء الدراسة بعد انتهاء العطلة الصيفية.

اعترض طريق أحد المدرسين، الذي كان يخرج من المبنى مع طائفة من الطلاب، سائلا:

ـــ وهل صدر حقا هذا الصباح إعلان وقف التدريس؟

لم يستوعب المدرس، أيضا، ما يقوله، حيث تسمر في مكانه وقد أصابه الذهول.

ـــ في أي صف يدرس ولدكم؟ـــ سأل المدرس.

سكت مندهشا، غير فاهم كلام المدرس.

ـــ غريب، لماذا لا يخرج مدرسنا حتى الآن؟

ـــ أي مدرس؟

ـــ أقصد المدرس نايف.

تطلع إليه المدرس بمزيد من الذهول.

ـــ مضى زمن طويل لموت المدرس نايف.

تسمر طويلا حيث يقف، وقد ازداد وجهه شحوبا ودعة، كان هذا يشبه وجه من يبكي بشدة. بعدما اتخذ وجهه هذا المظهر بفترة طويلة، حتى تدفق الدمع من عينيه، لكن، وحين أخذ الدمع يتدفق، سرعان ما تغير وجهه، متخذا

على الفور مظهرا قريبا من حالة الضحك، ثم تجهم من جديد كما لو يبكي. وقد راقب المدرس، مذهولا، هذه التحولات في وجهه، واحدا واحدا، بالتفاصيل، وبدقة. إن تحولات كهذه في وجهه كانت تحرق، من ينظر إليه، بنار العذاب الذي لا يستحقه.

ابتعد المدرس. تمنى لو يقبل نحوه المدرس نايف، لكن ذلك المدرس لم يكن يرى في أي مكان كما لو مات حقا منذ زمن طويل. استفسر عن ذلك من مدرس آخر:

ـــ كيف للمدرس نايف أن يكون ميتا؟ لقد شاهدته اليوم حالما سمعت بأمر وقف التدريس، كنت خائفا أن يوبخني بحدة ويترل بي عقوبة جسدية، فإذا به يمر بجانبي دون أن يكلمني. وهل حقا تم وقف التدريس اليوم؟

ـــ كلا، لم يتوقف التدريس.

أجابه المدرس، الذي أصابته الدهشة. غمره السرور حين سمع هذا. وعلى الفور، تجعد وجهه تحت تأثير الضحك. وقد تحركت كل التجاعيد التي في وجهه للتعبير عن غبطته. لكن، بعد برهة قصيرة، رويدا رويدا أخذ تعبير هذه الغبطة، الواضحة للعيان، يشبه البكاء، وفي الأخير، كالبكاء حقا، تجهم بألم.

سروال هذا الرجل ذي الوجه الشاحب كان مثنيا إلى ركبته، وكان ملطخا بالوحل والقذارة. استغرب المدرس وهو ينظر إلى حقيبته المدرسية المعلقة على كتفه. كانت تشبه حقيبة عثر عليها داخل الزبالة. سأله المدرس، من جديد، غير مدرك عما يحدث:

ـــ هل ولدك يدرس في هذه المدرسة؟

ـــ كلا، أنا الذي أدرس.

ـــ ماذا؟

المدرس كان يزداد ضياعا وهو يستمع إلى كلماته.

ـــ هل تنتظر، هنا، أحدهم؟

ـــ أجل. إنها في الحال ستخرج من هذا الباب راكضة. هي تحب اللعب مع الآخرين متراكضين.

وهو يتفوه هكذا، مد ذراعه مشيرا إلى باب مبنى الدراسة.

ـــ من هي؟

ـــ اسمها تشينار.

منذ ذلك اليوم، والطلاب والمدرسون يشاهدونه على الدوام، يقف هناك بهيئته النحيلة والطويلة، متطلعا نحو الباب، بانتظار أحد ما.

ماذا يفعل الرجل هناك، الآخرون لم يكن بمقدورهم أن يفهموا. لأنهم كلنوا يعيشون في أواخر التسعينيات، أما هو، ففي هذا الوقت بالضبط، وقت ما بعد الظهر في أواخر الستينيات، كان يترقب قرب الدرجات أن تخرج تلك الفتاة، التي اسمها تشينار، من الباب راكضة.

الفهرس

الكاتب	القصة	الصفحة
ولي داود	الموت في الحرية	٣
محمد أمين عاشور	وادي الذئاب	٧
توختي مقبل	الفتوى	٢٣
عمر قادر	الرجاء	٣٢
فرهاد إلياس	انسلاخ	٥٩
كوراشجان عمر	مولانا	٦٢
أركين نور	نحيب	٨٠
	امرأة بلا شكل	٨٣
	تحليق	٨٥
	الخوف من الذات	٨٧
فرهاد تورسون	الشرشف	٨٨
	تشينار	٩٧